إقبال
الشاعر الثائر

بقلم

الدكتور نجيب الكيلاني

فاز هذا البحث بجائزة وزارة التربية والتعليم
في مسابقة عام ١٩٥٧ (قسم التراجم والسير)

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

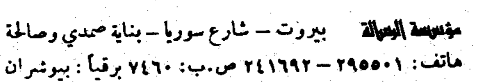
إقبال

الشاعر الثائر

الطبعة الثالثة

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م





مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اردت أن أسطر هـذه الصفحات الموجزة عن (الدكتور محمد اقبال) ، أول من دعا الى تكوين دولة باكستان ؛ لأن فلسفته وشعره ونمط حياته ، وقصة كفاحه ؛ جديرة بأن يقرأها شبابنا ، وخاصة في هـذه الفترة الدقيقة ، التي تجتازها بلادنا الحبيبة !..

ولقد توخيت السهولة والاستطراد التوضيحي ؛ فقـد قصدت أن يكثر عدد قراء (اقبال) في العالم العربي ، وأن يستطيع ذوو الثقافات أن يلموا بسيرة هذا الرجل العظيم !..

وقـد يجد القارىء شيئاً – ليس بالقليل – من الدسامة في

الشعر الذي استشهدنا به ، لكن لو أدرك القارىء أن الترجمة من الشعر الى الشعر أمر ليس ميسوراً سهلاً ،فسيقدر من غير شك هذه الظروف !..

هـــذا ...

وأرجو أن تكون هـذه السطور زاداً لشبابنا المكافح في معركته الدامية ضد قوى الاستعمار !..

لقد كان (اقبال) أحد اولئك القلائل ؛ الذين بعثوا النور في سماء الشرق من امثال (الأفغاني) و (محمد بن عبد الوهاب) وغيرهما ، فرحم الله (اقبالاً) !..

بين البرهمية والإسلام

(الهند) ... عام ١٨٧٣ م

لقد لوّث جمالها ، وشاب جلالها ، وجود الاستعمار الغربي الذي لا يقدس حرية ، ولا يبقي على كرامة ، لأن أجواء الحرية والكرامة لا تعطي الفرصة له كي يتنفس ويعيش ، وهما عدوان لدودان للغاصبين ، فلن يستطيع الانجليز أن يسودوا ، إلا حيث تُهدَر كرامة الأحرار وتُداس عزتهم !..

وبالأمس ثارت الهند الأبية — أو الدرّة العصماء — على تاج الامبراطورية التي أرغموها أن ترتبط به ، لكن قدّر لهذه الثورة الاسلامية ، التي قام بها الجيش الهندي ، أن تقهرها قوى الاستبداد الغاشم ، فلم تصل إلى غايتها ، وما أكثر الدماء التي أريقت ، والأرواح التي أزهقت ظلماً وعدواناً !..

ومضى على هذه الثورة ما يقرب من عشرين عاماً ... لكن ذكراها كانت عالقة بالأذهان وحوادثها الحمراء مـا فتئت تجري على ألسنة الأجيال وتراود خيال الفتية الناشئة . والشعوب إذا أثقل كاهلها الألم ، وأنهكها الطغيان ، تحـلم بماضيها ، وتجتر تاريخها العاطر ، فتشعر بشيء من الراحة ، وبقليل من العزاء ، لعل في ذلك ما يدفعها إلى الأمام ويبث بين حناياها بذور الأمل والرجاء ...

في هـذه الفترة الحرجة المضطربة من تاريخ (الهند) عام ١٨٧٣ م ، بزغ في سماء الخلود والمجـد نجم ساطع لألاء ، أخاذ الرواء ، ألا وهو نجم شاعرنا الفيلسوف ، والحكيم النـابه ، والعـالم المبرز ، والخطيب المفوه ، والناثر البليـغ ، والمسلم الحق (محمد إقبال) !..

وُلد شاعرنا العظيم في بـلدة (سيالكوت) – في إقليم (البنجاب) – حيث الأنهار الجارية التي تنحدر عبر التـلال الجميلة، حاملة في خريرها وتدافع أمواجها ، قصة الأزل ، وسنة الأبد ، لذلك تفتحت عينا (إقبال) – أول مـا تفتحتا – على مناظر بلاده الجميلة ، وطبيعتها الخلابة فوق السفوح والسهول ، وفي السماء والأرض ، ولم يكن يشوّه جمال هذه البقاع إلا هوان أهلها ، فالخيرات والنعم قـد استحوذ عليها غاصب ، ومصادر الأرزاق والحيـاة قد استحوذ عليها وتحكّم فيها دخيل ، والاسلام قـد صار بين ذويه أطلالاً خربة ، وصوامع مهدمة ،

وأشباحاً لا روح فيها ولا حيـــاة ، ورموزاً لا تبعث على فهم أو تمييز ...

فهل هناك برهان أسطع على هـــذا من تلك الحال الزرية ، والهـاوية السحيقة التي انساق اليها المسلمون ، وغير المسلمين ، في الهند ؟؟..

وهل الاسلام إلا العزة والكرامة والإباء؟؟..فإذا ما انعدمت هـذه المثل وانهارت تلك القيم ، فهل من المستطاع إذاً أن نقول أن الإسلام ما زال بخير ، أو نقول أنه لم يبقَ منه غير القشور والأسماء المجردة ؟؟.. كان على الغافلين أن يتنبهوا، وعلى الغارقين في نومهم أن يهبوا ؛ كي يلبوا داعي البعث والنشور ..

وشاء الله أن يكون (اقبال) في طليعة الثائرين الداعين إلى البعث ، ويا لها من تبعة ضخمة !!..

آباؤه :

ينتمي (اقبال) إلى سلالة وثنية كريمة الأصل،عريقة المنبت، كانت تعيش في (كشمير) . وكانت هذه السلالة من (البراهمة) أسمى وأكرم طبقات الهند ، وتنتسب إلى (الجنس الآري) ، فالبراهمة هم ذؤابة سكان الهند ، ولهم لواء العظمة ، ومعقد الفخار والسيادة والسيطرة، والقيمة على طبقات الهند المختلفة — أمرها مطاع، وقولها قضاء نافذ،رغم أنها تعبد الأصنام،وتقدس

التماثيل. وكان لهذه الطبقة قانون مدني وسياسي اسمه (منوشاستر)، يقسم المجتمع الهندي إلى طبقات أربع، تقسيماً قاسياً ظالماً، على أساس الاستعباد، والاستغلال الفظيع للطبقات الدنيا واحتقارها. فالبراهمة قوم ملحقون بالآلهة، وهم صفوة الله، وملوك الخلق، وكل ما في العالم ملك لهم .. وهم سادة الأرض، لهم أن يأخذوا من مال عبيدهم، أي الطبقات الدنيا، ما شاؤا [1]. ولم يكونوا يدفعون أتاوة، وإذا استحق أحدهم القتل اكتفى بحلق رأسه فقط، وترك حياً !!..

تلك هي حال (البراهمة)، الطبقة التي انتمى إليها أجداد (اقبال). وقد تعجب أيها القارىء حين تعلم أن هذه الأسرة قد تنازلت عن امتيازاتها، وحقهـا الالهي، ومنزلتها الرفيعة المرموقة، تركت كل هذا لتنضوي تحت لواء الإسلام الحنيف، الذي لا يفرق بين أبيض وأسود، أو أصفر أو أحمر، وكان ذلك بمحض رغبتهـا، وبدافع من تفكيرها السليم، فلم يرغمها على ذلك سيف، أو يدفعها دافع تافه، من جزية أو تهديد أو وعيد !..

وبهذا أصبح ذلك الجد الأكبر، الملقب بلقب (بنديت) فرداً عادياً، لا يعترف بالفرق الشاسع بين برهمي ومنبوذ .. وكانت

(١) للأستاذ الندوي.

هـذه الهداية على يد أحد رجال الصوفية في (كشمير) ، ولذا ظلت النزعة الصوفية متغلبة على أفراد الأسرة فيما بعد !!...

وهكذا نرى أن هذه الأسرة التي تقلبت في أحضان البرهمية وعاشت في أبراجها العاجية وترى نفسها لاحقة بالآلهة ومن دونها عبيد وحشم ، نراها بعد ثلاثة قرون قد أنجبت (اقبالاً) الذي يقول :

« يجب أن تفنى في دينك وملتك ، بعد أن تكسر أصنام اللون والدم، حتى لا يبقى في العالم (توراني) ولا (ايراني) ولا (أفغاني) .. »

ثم يقول في موضع آخر :

« إن مقاصد الفطرة الأولى ، ورمز الإسلام الحقيقي هي أن تملك العالم بالأخوة ، وتحكمه بالمحبة » !..

فما موضع هـذا الكلام بالنسبة لأجداده البراهمة الذين كانوا ينظرون إلى المنبوذين نظرتهم إلى الكلاب والقطط والبوم أو ما دون ذلك ؟؟..

وهكذا استطاع الاسلام - بسماحته الحقـة ، وتعاليمه الخالدة ، وشريعته البيضاء - أن يغزو تلك القلوب البرهمية المتألهة ، ويتغلغل في أعماقها ، ثم يقوم بأخطر انقلاب مـادي

ومعنوي في حياتها ، فتظهر في ثوب جـديد ، وتنطلق بقلوب جديدة، ودوافع فطرية سليمة، وهل الاسلام إلا الفطرة السليمة والغريزة المهذبة الطيبة ، والاستجابات الطبيعية لنواميس الحياة ومؤثراتها ؟؟.. وما أن تسربت هذه العقيدة الاسلامية الجديدة عبر الأجيال إلى(إقبال)،حتى تلقاها باستعداده الصادق وبيئته العريقة، وفهمه الدقيق،فهتف بأنغامه الشجية ، وألحانه القوية، حتى يثير روح البعث في الخاملين من أبناء الهند ، مسلمين وغير مسلمين . ولقد قال أحد زعماء الهنادك :

« إن (إقبالاً) قد وضع المصباح على باب المسلم ، ولم يحجب نوره عن غـير المسلمين ، بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح » .

وقد يثير هـذا الانقلاب العجيب شيئاً من التساؤل : أمن (برهمية) نافرة ، إلى إسلامية وضيئة ، متضلعة مستقيمة ؟؟..

والجواب على هذا التساؤل سيكون بسيطاً غاية في البساطة، لو عدنا إلى الوراء عدة قرون ، عندما أشرق فجر الاسلام أول مرة على الجزيرة العربية بقوته العجيبة ، وسحره النفاذ ، الذي استطاع به أن يحدث انقلاباً نفسياً هـائلاً ، جعل من القبائل المتنافرة المتناحرة إخوة أوفياء ، يؤمنون بأن التفاني في سبيل الحق، والإيثار والتسامح والإخاء والمساواة ، هي الحياة والنور والهداية . وسرعان مـا اعتنقت وتصافت رايات (الأوس)

و (الخزرج) بعد أن كانت ملوثة بدماء الحقد ، ولم تعد تخفق إلا لله ، ولا تصطبغ إلا بدماء الأوغاد والطغـــاة ، من خصوم دعوة التحرير والإيمان ، واستطاع الاسلام الوليد أيضاً أن يخلق من قطاع الطرق ، ولصوص الآكام حفظة للأمن ودعاة للسلام ، وحمَلة للنور والمعرفة ...

واستطاع الدين الحنيف أن يكسر حـدة النفس ، ويكبح شهواتها ، ويجمع بين (بلال) و (أبي بكر) و (سلمـــان) و (علي) ، فتلاقى السوقة مع الأشراف ، والعبيد مع السادة ، لأن الطريق واحد ، والغاية متحدة !..

وهــذا ما حدث في الديار الهندية لأسرة (إقبال) ، فكان الانقلاب الخطير الذي بدّل حياتها، وشكّل سلوكها وتفكيرها، وصبغ حياتها بهذه الصبغة الجديدة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟!... »

صحيح أن (إقبالاً) كان يحظى بقدر كبير من الإباء والشمم والكبرياء ، لكن هذا كان مع قوم ذوي مراكز مرموقة في المجتمع الهندي ، لكنه كان في الوقت نفسه يظهر التواضع الجم، والاحترام الزائد لمن هم دونه في المرتبة ونباهــة الشأن . فلقد دعاه أحد أصدقائه الأغنياء [1] في (لاهور) إلى وليمة عرس ،

---

(١) عن كتاب (فلسفة اقبال) .

ولكن في نفس الوقت جاء إليه أحد معارفه الفقراء — وكان طاهياً — يدعوه إلى وليمة أقامها في بيته ، فلم يتوجه (اقبال) إلى مائدة ذلك الثري ، بل ولى وجهه شطر صاحبه الفقير ليكمل أفراحه ، ويضفي على منزله الهناءة والسرور ، لكن (اقبالاً) المهذب لم ينسَ أن يمر على بيت صديقه الثري ، ليقول له : « لقد قبلت دعوتك في كرامة صديقي الطاهي ». فكان اعتذاراً لبقاً جميلاً .

وهكذا كان (اقبال) طول حياته مسلماً قلباً وقالباً ، لا برهمياً متعجرفاً ... مسلماً يبش في وجوه البائسين والفقراء ، ويخالطهم ويجالسهم ويهتم بأمرهم !!..

لقد عرف (إقبال) نفسه في غير زيف أو خداع، وجردها من أوهامها وغلوائها، وطهرها من عبثها وعثراتها، ووقف تجاهها صريحاً قوياً. ثم عرف من هم أجداده في الأمس البعيد ، وهم (البراهمة) ، ومن هم آباؤه في الأمس القريب ، فقام من فوره ليضع لنفسه ، وللمسلمين في شتى أنحاء الهند وخارجها ، فلسفته الميسورة الواضحة ، المستقاة من صميم عقيدته وكيانه وهتف قائلاً :

« كان آبائي براهمة في الكفر ، وزهاداً في الإسلام وعاشوا يفكرون في ذات الله، ورأيي أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله ، في ذات الإنسان — فمن عرف نفسه عرف ربه ... »

لقد أراد أن يبدأ الطريق من نفسه منطلقاً إلى الله سبحانه، فهو غاية الغايات، ومنتهى الآمال .. وسنذكر شيئاً موجزاً عن فلسفته فيا بعد !..

والــــده :

إذا كانت فترة الطفولة هي التي تحدد مستقبل الانسان — كما يقول علمـــاء النفس — وهي التي تسم تصرفاته، لما قد يكون اكتنفها من حوادث، أو ألم بها من مشاعر وعواطف وصدمات وغير ذلك، — إذا كانت فترة الطفولة هكذا، فإنها في الواقع قــد أثرت في (إقبال) أيما تأثير، وتركت في نفسه خطوطاً عميقة، مهدت لحياته التي ارتضاها لنفسه، وأوضحت الطريق للخطة التي آمن بها وانتهجها . ومن بين تلك العوامل الهامة التي ينطبع بها الطفل، منذ فجر حياته هي طبيعة الوالدين !..

لقد كان والد (إقبال) صوفياً زاهداً، يهتز فؤاده رهبــة وإشفاقاً، وتدمع عيناه خوفاً ووجلاً، كلما ذكرت الجنةوالنار وكلما سمع أو قرأ عن هول يوم الحشر، ورهبة يوم الحساب، ومثل هذا الانسان لا يفتأ يذكر أن رحلة الحياة قصيرة الأمد، ومهما لازمناها، ولهونا وانطلقنا في رحباتها، فإن لآمالنا نهاية، ولأطماعنا عمراً محدوداً، فلا خلود إذاً إلا للعمل الصالح، ولا خير في شيء إلا طاعة الله فيا أمر به، والانتهاء عما نهى عنه !.

ففي كتاب (إقبال) – (أسرار الذات) – يقول :

« وقع على بابنـــا سائل وقوع القضاء ، ورفع صوته كأنه نعيب غراب ، وأخذ يهز الباب !.. ولما آلمني تصايحه وإلحافه ، خرجت اليه .. فأهويت على رأسه بضربة بعثرت ما بيده ، مما جمعه طوال يومه ، فلمـا رأى والدي تلك الحادثة اصفرّ وجهه الأحمر ، وانحدرت الدموع نهراً على خدّيه وقال :

« تذكـّر يا بنيّ جلال المحشر !..

يوم تجتمع أمة خير البشر ...

وأرجع البصر كرّة إلى لحيتي البيضاء !..

ونحول جسمي المرتعش بين الخوف والرجاء !..

كن يا بنيّ من البراعم في غصن (محمد) !..

وكن زهرة يحييها نسيم ربيـع (المصطفى) !.. »

في مثل هذا الجو الروحاني الزاخر بالإشفاق من يوم اللقاء ، العامر بالحب الخالص لبني البشر ، المتأرجح بين الخوف من المصير المجهول ، والرجاء في الغد المأمول ... في مثل هـذا الجو عاش (إقبال) ينظر فيرى أباه لا يفتأ يتحسس – بأنامله المرتعشة الواهنة – تلك اللحية البيضاء التي تؤذن باقتراب الرحيل .. وتنذر بانتهاء الرحلة الدنيوية القصيرة .. وسرعان ما تحوم في

ذهنه مناظر المحشر ، ومشاهده العصيبة ، التي تنوء تحت ثقلها أقوى القلوب شجاعة ، ويتلعثم عندها أقوى النـــاس فصاحة وبياناً ...

وقد يظن ظان أن مثل هـذه الحياة الخائفة الوجلة ، وتلك القلوب الواجفة التي تظل تذكر القيـــامة والعذاب والثواب ، تكون دائماً نهباً للقلق ، وميراثاً للحيرة والشقاء الذي لا ينفد ، لكن الحقيقة غير ذلك ، لأن مثل تلك النزعة الصوفية الطاهرة إذا ما سيطرت وتحكمت في الانسان، سرعان ما يرى في الحرمان لذة أي لذة ، ويرى في خوف الله طاعـــة لا تدانيها طاعة ، وسعادة لا تعادلهـا سعادة ، فلا حيرة إذاً ، ولا شقاء ولا قلق ولا شك ، وإنما الرضا الشامل والسلامة والأمان !..

فلا عجب إذا مـا ذكر (إقبالاً) أبوه بالمحشر وهوله ، ثم أتبع ذلك بوصية رائعـة لفلذة كبده الحبيب ، كي يكون برعماً وضاء حياً ، في الغصن اللدن النضير ، والفرع النبوي المونق ، ولـكي يكون زهرة لا تنعشها إلا النسائم الربانية، ولا تحييها إلا الخفقـــات والنبضات الاسلامية ، ولا تستنشق إلا ريح الدين وأنفاس الرسول العربي (محمد بن عبد الله) ...

وكأني بإقبال ، ذلك الفتى الغض اليـافع ، وهو يتلقى تلك الأنغـــام السلسة تتدفق من فم أبيه في سهولة وغير تـكلف ، صادرة من أعماق روحه المؤمنة ، نابعة من فيض نفسه الناصعة

الورعة ، فيتلقفها (إقبـــال) في سهولة وغير تـكلف أيضاً ، ويتقبلها تقبلاً سريعاً طبيعياً ، ثم تسري في قلبه وفؤاده، فتصير هذه المعاني لديه في الحيـــاة !.. هي الاسلام والسعادة والنعيم الأبدي ، والراحة في الدنيا والآخرة !..

إن الجرعات الدينيـــة النقية لهي الدواء الناجع للبشرية الحائرة ، وإن في الكؤوس الروحية الخالصة لنشوة سامية تنفي عن الانسان ظلمات الشك ، وتحجب عن عينيه أصنام اليأس ، والاستسلام ، وترده إلى حظيرة الخير والحب والصفاء ، ولطالما ارتشف (إقبال) من تلك الكؤوس فشفت من نفسه جراحاً ، وأبانت له عن طريق سليم واضح ، وكشفت له عن أشياء ، ما كان ليكشف عنها ، وينعم بجمالها ، لولا تلك الجرعات النافعة ، وما أجمل قوله :

اليوم أسمعك احتدام مشاعري وصراخ إيماني وصوت منايا
المستحيل بدا لعيني ممكناً سأرى الخليقة ما رأت عينايا

●

لم ألقَ في هذا الوجود سعادة كمودّة الانسان للانسان
لما سكرت بخمرها القدسي.. لم أحتجْ إلى تلك التي في الحان

هـذا هو نتاج « الزهرة التي يحييها نسيم ربيع المصطفى » ، كما قال له أبوه من قبل ، وهذا هو (إقبال) الذي يوقد (شموع

القلوب) بعــد أن غرقت في بيداء الظلمات ، ويبعث فيّ ثورة صرخة الإيمان والأمل ، بعــد أن ضرب اليأس أطنابه ، وساد (الهند) عسف وطغيـــان وفساد ، وطوى المسلمين خنوع وإذلال !..

وهكذا عوّل (إقبــال) على أن يصيح ويصيح ، حتى يملأ ربوع الهند والعالم الاسلامي صياحاً ونداء ، كي يبعث النائمين في الكهوف ، والموتى في القبور .. قبور الضياع !.. ولكي يصرف القلوب الضالة الكافرة عن كأس الشيطان ، ويتجه بها إلى كأس المودة ، وظل الاسلام والتحرر والمحبة !..

بين العلم والعمل

إن الدعوات الكبيرة ، ذوات المرامي البعيدة والأهداف الإنسانية ، قلما تنجح بالعصبيات الجامحة وحدها ، وقلما تستطيع أن تمضي بين العواصف والأنوار الثائرة بهذا وحده ، فلا بد من الفكر الثاقب ، والعلم الواسع ، والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التي لا اهتزاز فيها ولا غموض ... وعندئذ تسهل التضحيات ، وتنضح المناهج ، ويعي الداعية ما يقول ، وبالتالي يعي الناس ما يلقى إليهم ، فيشمون منه روح الصدق ، وبوادر الإخلاص ، ونوايا الوفاء !.. وهنا تراود أخيلتهم أحلام البعث والتحرر ، وتظل تلح وتلح عليهم ، وتتجسم أمام بصائرهم ، حتى يستجيبوا لها ، ويهبوا كالأقدار النافذة التي لا تذعن ولا ترضخ ، ولا يخيفها بلاء مهما كثر ، ولا يروعها بذل مهما غلا ، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد !..

نقول أن الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة ، هي الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الاصلاح والبعث والتحرير ، فهذه إذاً هي القاعدة ، وحينما نقول العلم ، نقصد العلم عامة سواء من الشرق أو الغرب ، وفي (لاهور) أو (كمبردج) أو (ميونخ) !.. ونقول أيضاً العلم الذي يغزو العقول ، ويصل إلى أعماقها ، فتفرزه وتفحصه ، وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ، ولا يخالف فطرتها ، أو يضاد عقائدها ومثلها العليا !..

إن من يتلقى كل شيء بقبول حسن ، ويقبل كل علم ، ويؤمن بكل نظرية ، دون فحص أو تمحيص، فيلغي شخصيته ويتناسى وجوده ، مثله كمثل الذي فقد حاسة الذوق ، فهو يأكل الشهد ، دون أن يشعر له بلذة ، ويتناول المر دون أن يدري له غصة أو مرارة ... إنه يأكل فقط ليملأ معدة خاوية ، ويقضي عادة متبعة ، وتقليداً جارياً .. ولكي يعيش !..

كان (إقبال) – شاعر الاسلام – من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ، ويلحقون به أينما رحل !..

وفي أثناء ذلك ، كان (إقبال) يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية، والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة ، فينقدها ويفندها ويردّها إلى أصولها، فيعلم الثمين من التافه، والنافع من الضار...

وظل رأيه هكذا متحرر النزعة ، متحرر الفكرة ، يناقش وينقد ، ويبتكر ، ويقدم إنتاجه في ثوب رائع قشيب لا تملك أمامه إلا أن تبدي الإعجاب ، وكان نتيجة ذلك أن أصبح (إقبال) ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث ، وآراء عميقة ، يتناقلها الكتاب والفلاسفة من قطر إلى قطر ، ومن جامعة إلى جامعة ، في (إيران) و (الأفغان) و (مصر) و (المانيا) و (انجلترا) و (إيطاليا) و (روسيا) !..

أجل ، ان المقلد الأعمى لا يأتي بجديد ، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التي تتوق إلى الخلق والانشاء وتتلذذ بالجديد النافع ، وفي نفس الوقت تماع شخصيته ، وتذوب فرديته أو (ذاته) ، التي حرص (إقبال) في فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم ، وشعار التحرر والمجد والخلود كما سنرى !...

●

ذهب (إقبال) منذ نعومة أظافره إلى مكتب تحفيظ القرآن في (سيالكوت) فما أن يتحرك النهار ، وينحسر ظل الليل رويداً رويداً ، وتثب الشمس من الأفق الشرقي حتى يكون (إقبال) جالساً يستقبل الفجر وأنداء الصباح تتمسح بوجهه البريء الصغير ، فيهب في نشاطه المعهود ، ويصلي من خلف أبيه الشيخ الزاهد ، ثم يتلو القرآن ، وقد حرص أبوه — المربي

الفاضل – على ألا تكون قراءة (إقبال) كلمات تلقى ، وآيات تتلى وإنما قال له :

« يا بني اقرأ القرآن ، كأنه نزل عليك ... »

وفي ذلك يقول (إقبال) :

« .. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت !.. »

كان الشيخ يريد لابنه أن يعي ما يقرأ ، ويفهم ما يتلو ... ثم ماذا ؟.. ثم يتصور أن هذا القرآن قد نزل عليه هو ، أي أن الله يخاطبه ويدعوه أن يعمل ويكافح ويثابر ، ويتلقى المسئولية كاملة ، ويقوم بأعباء أخطر رسالة ، وينهض بأثقل حمل ، فلكل مسلم دور كبير إزاء إسلامه ، فيجب أن يؤديه بكل دقة وإخلاص ، فليس الإسلام استظهار متون ، وحفظ حواش ، بل هو فهم وإدراك ، وصيحة للحق والنور والهداية ، والسيدة عائشة (رضي الله عنها) تقول عن النبي ﷺ : « كان خلقه القرآن !... »

وقراءة القرآن في الصباح زاد رائع لا يدركه إلا المجربون ، ونور رزين طهور ، لا يطرب له إلا المؤمنون ، إذ أنه يطبع الإنسان بطابع الرقة والحب ، ويبثه هدوءاً وأمناً عجيبين !.. لذلك كان (إقبال) منذ صغره فاحص النظرة ، ملهم الحكم ،

يخترق بثاقب فكره الحجب المتكاثفة ، ويغوص بعقلة المؤمن إلى أعماق الحقائق !... فلا يقنع بالأصداف والقشور ، عن الجواهر ولباب الحقائق !..

ثم انتقل (إقبال) إلى مدرسة (سيالكوت)، وما أن أتم دراسته الثانوية حتى التحق بكليتها ، حيث تلقى أصول اللغة الفارسية والعربية على أستاذه السيد (مير حسن) !... ولقد امتاز طوال هذه الفترة ، بذكائه الحاد ، وبديهته السريعة ، وحوزه لقصب السبق بين أقرانه ولداته ، ونتج عن ذلك أن نال الجوائز السنية ، ونال فرصة الدراسة بالمجان .

ولعل من نافلة القول أن نذكر شيئاً عن أخلاقه وسلوكه ، اللذين قد انطبعا بنشأته الدينية ومدرسته القرآنية ، وأسرته المؤمنة المتصوفة ، فكان سمحاً هادئاً معواناً ، رقيق الحاشية ، طيب العاطفة ، واسع الصدر ، يحترمه الجميع ، ويجلُّه كل من اتصل به وعرفه حتى أساتذته ،وفي هذه الفترة ازدادت تأملاته، وازداد نشدانه للحقيقة ، كأنما كان يحلم بالاستقرار الفكري وهدوء البال ، فاستمع اليه وهو يقول :

« أنا طالب النور ... أنا قلق في معمورة هذا العالم ... أنا مثل الطفل الصغير في ظلام الوجود الحالك ... أنا مضطرب كالزئبق !... »

فما السر في هذا الاضطراب المفاجيء ، والحيرة المباغتة التي

انتابت (إقبالاً) ؟؟... لقد ودع (إقبال) طفولته الوادعة ، وصباه الساكن الهادىء ، وتعلم الكثير في المدرسة والجامعة وقرأ عن الدنيا ، دنيا الأمس واليوم ، وسمع عن العالم الحديث ، عالم الغرب والشرق ، ولقد كان لهذه الفترة الانتقالية أثر في حياته أي أثر ، وتلقى (إقبال) سني شبابه ، في شيء من الألم والقلق ، وكان لذلك سببان اثنان يكادان يكونان العاملين الهامين في ذلك :

أولهما : أن الهند في تلك الفترة ، قد استسلمت للاستعمار الغربي تحت التهديد والوعيد بعد أن لاقى الأحرار فيها ما لاقوا: من أذى واضطهاد ، وإراقة دماء ، وتكميم أفواه ، وكبت حريات !.. ولا شك أن للإجراءات الشاذة ، والتصرفات الجائرة التي يقدم عليها المحتلون ، أثراً عميقاً بليغاً في نفوس الأمم المغلوبة على أمرها ، كما أن المعارك الدامية التي قد تنشب بين القاهر والمقهور، ثم تنتهي إلى النتيجة الدامية التي كثيراً ما تتبع صراع الحق الأعزل مع الباطل المسلح ، لا شك أن لذلك كله أثراً في نفوس أبناء الشعب — وخصوصاً الواعين الفاهمين منهم — فلا يعقل أن يستمتعوا بالهدوء في ظل الطغيان ، أو أن ينعموا بالسعادة تحت جناح الفساد ، ويأنسوا بالراحة ، في جو خانق مكفهر ، تئزُّ فيه طائرات العدو ، وتلوثه أنفاسه الدنسة الباغية !...

وثانيهما : الاسلام : الاسلام الذي سمع عنه (إقبال) رضيعاً،

وتشرَّبه معنى ومبنى ، منـذ أن درج في رحبة بيتهم الكبير ، والذي رأى سماته وملامحه تشعُّ في وجه أبيه الشيخ وأمه !.. لقد علموه صغيراً ويافعاً أن في الاسلام خير الدنيا والآخرة، وأن بين دفتي القرآن العصمة والمعرفة والهداية من الضلال ، والنجاة من الهاوية ، ثم تأكد هو نفسه أن التـاريخ يحمل في طيّاته للاسلام كل تمجيـد وشكران ، وأن الدنيا ظلت تتغنى بتلك الأمجاد أجيالاً وأجيالاً !..

لكن ماذا قد حدث ؟.

لقد نسي المسلمون كل هذا أو تناسوه.. فاستسلموا وتواكلوا وخيّل اليهم أن هـذه المصائب قدر لا يُردّ ، وقضاء نازل لا يستطيع احد ان يمنعه !..

ضاقت نفس (إقبال) وفاضت بالألم والحسرة والحزن ، فهو يلتفت الى الماضي الزاهر العامر فيشعر بالقوة وبالسعادة تغمر جوانحه، ثم يرتد طرفه الى الحاضر المزري المخزي ، فيشعر بمدى الكارثة التي حلت بقومه ، وتوشك أن تفيض الدموع من عينيه فيصيح هاتفاً : « أنا طالب النور !.. أنا قلق !.. » النور الذي يقوده الى النصر ،والقلق الذي بذره فيه انتظار المستقبل المجهول. وطالب النور متى ألح في طلبه ، وصرف وقته باحثاً مفكراً مدققاً ، مسلحاً بالخبرة والمعرفة معتصماً بالصبر والنضال فهو لا بد واصل الى ما يريد ، نائل ما يأمل ، فما أن تمر تلك الفترة

الحائرة بنارها التي تنضج ولا تحرق ، وتنير ولا تغشي العيون حتى يهتف (إقبال) بعد سنوات قائلاً :

مسلماً ، ان ترد حياة فيها   ما بغير القرآن تأتي الحياة

في (لاهور) :

إن (إقبالاً) يمضي الى الأمام، تدفعه سورة الباب، وعشق العلم ، وقلب الشاعر الفتى الطموح !..

لقد فتحت كلية الحكومة في (لاهور) ذراعيها لاستقبال الشاب الذكي ، وأخلت له (جمعية حماية الاسلام) هناك منبرها؛ ليذيع من فوقه شعره القوي النابض ذا الروح الجديدة ، والاسلوب الفريد .

وفي الكلية فاق وتقدم أقرانه ، فنال (ميداليتين) ذهبيتين، ومساعدة الحكومة الشهرية له جزاء اجتهاده .

وعلى منصة (جمعية حماية الاسلام) أخذ يردد قصائده ، فجوّبت شهرته الآفاق ، وسمع عنه القاصي والداني .

وبعد حين استطاع أن يحوز ثقة أصدقائه وعارفيه في تلك الجمعية ، وبعد أن رأوا ما رأوا من غيرته على الدين ، ودفاعه عن الحق ، ودعوته الى الكفاح ، اختاروه سكرتيراً للجمعية .

واستطاع (إقبال) أن يوائم بين الشعر والسياسة، وان بدا كل منهما على طرفي نقيض .. ولا عجب في ذلك ، اذا ما عرفنا قوام ذلك الشعر وموضوعاته وأهدافه ، وعرفنا صيغته ، فشعر (إقبال) عمـاده الفقه المتين ، والمنطق السليم والوجدان الحي المؤمن ، يتخذ من أمراض المسلمين وأدوائهم ومشكلاتهم مادته، ولم يكن يهدف إلا الى التحرر والخلاص ، والعودة الى الينابيع الاولى ، مع الاستجابة لأحداث العصر ، ومشكلات الساعة .

وفي كلية الحكومة بـ (لاهور) التقى (إقبـال) بأستاذه الفيلسوف المستشرق (توماس أرنولد) وهو من خيرة من درسوا الاسلام والتصوف الاسلامي، وله مواقف كريمة في الدفاع عنه، ورحّب الاستاذ بميل تلميذه الى الفلسفة ، فكان له خير مرشد ومعين ، وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الصداقة، واستحكمت روابط الإلفة ، ثم نال (إقبال) بعد ذلك شهادة في الفلسفة .

وكثيراً ما كان الاستاذ (توماس) يفخر بذكاء تلميذه ، ويعتز بصداقته ، وظلت هذه العلاقة وطيدة الأركان ، وقـد حدث أن (إقبالاً) اثناء تجواله في ربوع اوربا، في الفترة ما بين ١٩٠٥ / ١٩٠٨ م ، قد سيطر عليه حب العلم والفلسفة ، فأراد أن يتفرغ لهما ، ونفر من الشعر وعول على هجرة إلى غير رجعة، غير ان أستاذه لم يوافق على ذلك مطلقاً ، فرضخ (إقبـال) وواصل انتاجه الشعري الذي امتزج بالفلسفة ، واختلطت به حقائق العلم مع سبحات الخيال !..

ولقد كانت صحبة (إقبال) لأستاذه (توماس أرنولد) ذات فوائد كثيرة ، ومدى بعيد فقـــد استمع (إقبال) إلى رأي أستاذه في كثير من المعضلات والأوضاع الفكرية ، ونهل على يديه الشيء الكثير من الثقافة الغربية وفلسفتها ، وبإضافة هذا إلى استعداده الطبيعي استطاع (إقبال) أن يرتكز على قاعدة متينة وأن يثبت الأرض تحت قدميه ، فلا تهتز أو تميد به ،ولقد شهد له أستاذه بذلك فيا بعد، حين طلب من (إقبال) أن يقوم بمهمة التدريس ، بدلاً منه ، في جامعـــة (كمبردج) لمدة ستة أشهر ، حظى (إقبال) اثناءها بالتعرف على عدد غير قليل من رجالات الفكر والأدب ، وأساتذة الجامعات ، فاتسع مجـال صداقته كما اتسع مجال فكره ، فلم يكد يمضي على ذلك بضع سنوات حتى كان بعضهم ينحني عـــلى الورق ، ليترجم إلى الانجليزية ثمار تلك العبقرية الهندية المسلمة ، وكان ذلك على يد الدكتور (نـكلسن) الذي ترجم ديوان (أسرار خودي) أي أسرار الذاتية أو الشخصية !..

نعود مرة ثانية إلى (إقبال)،بعد أن أنهى دراسته الجامعية (بلاهور) ، فنجد أنه قد عين أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية في (لاهور) ، ثم أستـــاذاً للفلسفة واللغة الانجليزية في كليـة الحكومة هناك .. وكان ذلك هو الدليل المادي على تقديرهم لغزارة علمه ... ورجاحة عقله ، وعظيم عبقريته !..

كان (إقبال) ينشد آفاقاً أرحب ، ومجالات أوسع ، فضلاً عن أنه يريد مزيداً من .. المعرفة والفلسفة ، ويتمنى أن يرى بعينه معالم المدنية الحديثة ويلم بكل أطرافها ، لأنه لم يرَ منها في بلاده غير ظلها الاستعماري الأسود الجاثم على صدر (الهند) ولهذا قام برحلته إلى أوروبا .

في بلاد الغرب :

قام (إقبال) بهذه الرحلة في عام ١٩٠٥ م قاصداً (انجلترا) ثم التحق بجامعة (كمبردج) ، ونال منها شهادة في فلسفة الأخلاق ، وواصل سيره بعد ذلك إلى حيث التحق بجامعة (ميونخ) ، في (ا لمانيا) ، فنال منها درجة (الدكتوراه) في الفلسفة ، وبعد عودته إلى (لندن) لم يضيع وقته في العبث واللهو ، بل نال شهادة (المحاماة) من جامعة (لندن) .

وفي أثناء ذلك ، توسع (إقبال) في قراءته عن (نيتشه) و (هيجل) ، (شوبنهاور) وغيرهم ، وقارن بينهم وبين فلاسفة الشرق ، أمثال (ابن سينا) و (ابن رشد) و (ابن عربي) و (جلال الدين الرومي) و (الشيرازي) ... وغيرهم من الفلاسفة والمتصوفين .

ولقد أصبح (إقبال) بعد ذلك ضليعاً في الفلسفة ، ملماً بدقائق علم الأخلاق ، دارساً للقانون أعمق دراسة ، وقد أعانه

ذلك على بحث تاريخ الثورات الكبرى، كالثورة الفرنسية مثلاً، وعرف عن كثب حضارة الغرب الحديثـــة ، وعرف مقوماتها ودوافعها وأهدافها ، وأدرك عيوبها ومآخذها ، وتيقن أنهـــا نهضة مادية رائعة ، لكنها نهضة عقلية لا قلب لهـا ، ولا روح فيها !...

وعـاد شاعرنا وقد اكتسب الكثير من الأفكار الحديثة التي كانت أوزان الشعر وقيوده توشك أن تضيق بها ولا تتحملها ، لكن (إقبال) بما أوتي من لباقة وسعة أفق ، وامتلاك لناصية القول ، استطاع أن يجعل الشعر أطوع له من بنانه، وأشد تلبية له من خادمه الوفي الأمين . وهكذا مزج (إقبال) الشعر بالعلم، وخلط قواعد الفلسفة وقوانينها بخفة الخيال وروعته ، فخرجت أوزانه قوية المعنى والمبنى ، أو كما يقول عنها :

كفاح شديد وضرب سديد   فلا ترجُ في الحرب عزف الوتر

وبعـــد أن درس (إقبال) الحضارة الغربية ومدلولاتها ، وقارنها بالحضارة الاسلامية ومضموناتها ، خرج بنتيجة حتمية لا مناص منها، إذ لا يمكن تجاهلها أو تناسيها، لأن ذلك سيكون على حساب الإنسانية ، وعلى حساب سعادة البشر .

وهـــذه النتيجة التي وصل اليها (إقبال) لم تكن نزعة متعصب ، أو زعم متدين أخرق ، ضيق الفكر ، لا يرى الحق

إلا من خلال معتقداته ، بل كان تقريره نتيجة لتلك الدراسات الطويلة المضنية ، والتعمق وراء الفلسفات المتبـــاينة ، وفهمه للمدنية الحديثة فهماً صحيحاً دقيقاً لا تحيز فيه ولا حيف، وليس أدل على عدم التحيز من أن يذكر (إقبال) الميزات والمفاخر بجانب المثالب والمآخذ،ويأتي بقضايا مدعوماً بالأدلة والبراهين.

والآن ما هي النتيجة التي وصل اليها (إقبال) ؟

قال للغربيين :

« إن حضارتكم سوف تقتـــل نفسها بخنجرها .. إن العش لا يثبت على غصن رطيب ضعيف مضطرب .. »، لأنها حضارة كافرة القلب ضائعة الروح ، وموازين القوى المادية هذه في تغير وتبدُّل دائم ، فهي إن كانت للغرب اليوم ، فستزول عنه بأسرع من السرعة التي حصل بهـــا عليها ، ولو أراد الغرب للبشرية خيراً ، لتلافى مـــا وقع فيه من أغلاط ، في وسائله ، وأهدافه وسياسته !.

وتيقن (إقبال) أيضاً أن البشرية لن تسعد وتهنـــأ إلا إذا حطمت فوارق اللون ، وعصبيات الجنس ، وبطلت اللصوصية العالمية ، وقضى على الاستعمار وعبـــادة المال ، ولن يتحقق ذلك إلا في ظل المبـــادىء الاسلامية الخالدة ، التي تحرم الغزو الاقتصادي، ولا تشرع الرماح إلا لإحقاق حق، أو نشر هداية،

ولا تؤمن إلا بالسلام والأخوة والحرية والقيم الانسانية الرفيعة، لذا يقول (إقبال) في معرض حديثه عن (عصبة الامم) :

حكمة الغرب فرقة النـاس والاسلام فيه توحد العمران
خبريني اليقين : هل عصبة الأقوام خير أم عصبة الانسان ؟

ثم يرى (إقبال) أن المسلم الحق ، والمؤمن الصادق الإيمان هو الملجأ الوحيد لهذا العـالم الحائر الزائغ ، فلن تمحى ظلمات الفساد والضلال والتحكم والتسلط والجشع،إلا بأضواء الاسلام، وسفينة الحق الضائعة في هذا العالم ـ عالم الهوى ـ لن تجد ربانا سوى المسلم الحق :

ان هـذا العصر ليل ، فأنر أيهـا المسلم ليل الحائرين
وسفين الحق في لج الهوى لا يرى غيرك ربان السفين

●

أنت كنز الدر والياقوت في موجة الدنيا وان لم يعرفوك
محفل الأجيـال محتاج الى صوتك العالي وان لم يسمعوك

كل ما خرج به (إقبال) من دراساته الواسعة ، ورحلته التي استغرقت ثلاث سنين ، هو اليقين الكامل بأن الاسلام هو الخلاص والنجاة للامم الاسلامية بوجه خاص، والعالم بوجه عام.

وآب من رحلته عام ١٩٠٨ م حاملاً بذور الدعوة الواسعة

التي آمن بها واضعاً الاسس الكاملة ، والقواعد الثابتة لذلك .. وسنتكلم عن ذلك في حينه ، وسرعان ما اعتذر عن كل عمل رسمي انتدبته الحكومة له ، رغم ما في ذلك من جاه ومال .

ولقد تعمق (إقبال) في دراسته للفكر الهندي والايراني ، ونال قسطاً وافراً من منابع التراث الروماني واليوناني قديمها وحديثها ، ونهل قدراً وافياً من الثقافة الانجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية ،هذا فضلاً عن الميراث الفكري الاسلامي والعربي ، الذي صرف فيه إقبال معظم مجهوداته .

أما اللغات التي أجادها (إقبال) فهي : (الاوردية) و (الفارسية) ، وقد كتب بهما دواوينه وكثيراً من محاضراته وخطبه ، والانجليزية — وكما قلنا آنفاً — أنه كان مدرّس الفلسفة واللغة الانجليزية في كلية الحكومة بـ (لاهور) ، كما أنه قام بالتدريس لفترة قصيرة في جامعة (كمبردج) ، ولقد ألقى محاضرة باللغة الانجليزية في (دار الشبان المسلمين) بالقاهرة ، أثناء عودته من مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣١ م ، ومحاضرة اخرى في دار (المؤتمر الاسلامي) في القدس ، كما أنه كان عظيم الإتقان للألمانية والفرنسية ، ولكنه كان يعرف العربية والسنسكريتية .

هذا هو (إقبال) العالم الدؤوب على الدرس .

(إقبال) الذي اعترف بفضله وعلمه الهندي وغير الهندي ، فلقد استدعاه ملك الأفغان ، ليستشيره في الاسس التي يجب أن تقوم عليها جامعة (كابل) المزمع إنشاؤها آنذاك ، واستقبلوه هناك أعظم استقبال وأروعه ، فلم تنسه روعة الاستقبالات رسالته الكبيرة ، ولم تفتنه أعلام التقدير ، وزينات الترحيب ، عن أن يزاول نشاطه ، ويكتب ديوان (مسافر) أثناء هذه الرحلة .

ولا عجب أن يتغنى بشعره أبناء (الأفغان) ويردده أشبال (إيران) في لذة وشغف ، ثم يترجمه أحد أبناء (تركيا) ، لينعم الترك بهذا التراث العظيم ، وهو الدكتور (حسين دانش)، الذي كتب عدة مقالات عن ديوان (إقبال) (بيام مشرق) أي رسالة الشرق .

ومن وراء جبال (الهملايا) ، وخلف التلال والهضاب يسارع أحد علماء (الروسيا) ، متكلفاً المشاق والأهوال ، راكباً الأخطار والأوعار حتى يلتقي (بإقبال) ، وينقل عنه مبادئه وأصول فلسفته ، التي أودعها ديوانه : (أسرار خودي).

أما في (ألمانيا) فقد قام الاستاذ (دايشو روسو) والدكتور

(فيشر) الاستاذ بجامعة (ليبزج) وصاحب مجلة (اسلاميكا)، والشاعر الألمـــاني الفيلسوف (هانسي) ، هؤلاء جميعاً ترجموا (لإقبـــال) وكتبوا عن شعره وفلسفته ، وقارنوا بينه وبين (جوته) الشاعر الألماني العظيم و (نيتشه) ، بل قامت هناك – في ألمانيا – جمعية اسمها (جماعة إقبال) تشرف على ترجمة آثاره ، ونشر مبادئه في ربوع البلاد وفي أروقة الجامعات .

وهكذا فعل (اسكاريا) في ايطاليا ، و (ميكنري) في أمريكا ، و (نكلسون) والمستشرق (براون) في انجلترا ، والدكتور (عبد الوهاب عزام) في مصر ، إذ كان له الفضل الأكبر في التعريف (بإقبال) في أرجاء العـــالم العربي وذلك بترجمة بعض دواوينه الى العربية ، (كرسالة الشرق)، و (ضرب الكليم) ، و (أسرار خودي) ، و (رموز بي خودي) ، وبالكتابة عنه .

●

وأخيراً أكان (إقبال) عالماً بحتاً ، وفيلسوفاً صرفاً ، قـد ملأت رأسه الأفكار ، وغطت أشعاره الصفحات فحسب ، أم كان رجلاً يقول ما يعتقد ، ثم يعمل بمقتضى هذا الاعتقاد ؟.

ان واقع حياته يجيب على كل ذلك ، فيقطع كل شك، ويدني

كل يقين ، فقد طرد (إقبال) ابنه من بيته لمـــا علم أنه يعاقر الخمر ، وضحّى (إقبال) بالمناصب العالية والمرتبات الضخمة ، ليتفرغ لرسالته الكبرى، وآثر أن يعمل في وظيفة مرشد قانوني حر ، فيقدم المعونة والارشاد لكل محتاج دون مقابل ، وألحوا عليه في مقاطعة (البنجاب) أن يرشح نفسه عضواً في المجلس التشريعي هناك ، وأقول ألحوا عليه إلحاحاً فليس (إقبال) بالذي يتهافت وراء المظاهر ، ويجري خلف المطامع الفانية ، ثم تقدم بعد نجاحه بتشريعات تتعلق بالضرائب ، الـتي يرزح تحت أعبائها الفقراء والفلاحون ، وبين الظلم الواقــع بهم ووجوب تخليصهم منه .

وتقدم بتشريعات للقضاء على الخمر ، ذلك السم الزعاف .

وأثناء إقامته في اوروبا لم تستهوه البدع أو يخدعــه البريق فينغمس في الشهوات والملاهي .. بل كان يعقـــد المحاضرات ، يتحدث فيهـــا عن الاسلام وبنوده العادلة ، وعن اشتراكيته وسماحته المشرقة وعقيدته الشريفة التي تجعل الانسان لا يحني رأسه إلا لله .. وبكى على أطلال الاندلس ومجدها الاسلامي الغـــابر ، ودعا الى إنقاذ (فلسطين) من براثن اليهود ، والاحتراس من الأحابيل التي ينصبها الاستعمار ، وكان ذلك قبل أن تحل بها النكبة الكبرى .

لقد كان (إقبال) عالماً وعاملاً .

وهذا هو مثل الاسلام الأعلى: علم صحيح سليم، وعمل صادق لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن ، ولقد كان (إقبال) يلفت النظر دائماً إلى أن الدين إذا لم تترجم مبادئه إلى أعمال،ونظرياته إلى وقائع ، فسيكون إذاً فلسفة مجردة ، ولن يكون ديناً أبداً بأي حال من الأحوال !.

فلسفة «إقبال»

لكل فكرة تخطر على بال أي إنسان دوافع !..

ولكل فلسفة تنبع في عقل أي عبقري بواعث وأسباب .

وكثير من الفلاسفة قد أدخلوا عنصر الالهام ضمن هـذه البواعث ..

والآن ، مـا هي بواعث فلسفة (إقبال) ، والدوافع التي أشعلت هـذه الفلسفة ، فجعلتها ملتهبة كالنار ، حمراء كالدم ، قوية كالسيول الجارفة ، نابضة بالحيوية والخلود ، ناطقة بالأمل والتفاؤل ؟..

لقد نظر إقبال حواليه ، فماذا رأى ؟.

المسلمون يرتعون في بيداء الجهالة ، ويضربون في فيافي الغفلة،

والإسلام الناصع الحي أصبح عنوان الذلة والفقر والضياع : تلوثت عقائده بفعل الكائدين والخادعين ، وجرى العبث في شرائعه بفعل المترمتين ، لذا أصبحوا محكومين بعد أن كانوا حاكمين ، وأمسوا رعايا مستعبدين بعد أن كانوا سادة أشرافاً ، وتلفت (إقبال) حائراً وكأني به يقول : إذاً فهذا هو الحال ويا له من مآل تعس .

ترى ما هو الداء الذي نخر في أجساد أممنا وشعوبنا، فأورثنا سوء المآل ، وذل الحياة ؟. وكان أول داء وقعت عينه عليه هو أن المسلمين يخافون الموت ، ويحرصون على الحياة بعد أن صاروا مزقاً وأهواء ، ونحلا متباينة ...

فلا بد إذاً أن يعودوا إلى (ذاتهم) ، لأنها مصدر الحركة والعمل ومصدر النور والحياة ، ومركز الإنسانية ومدار الخلود يجب أن يعود الإنسان إلى (ذاته) يقويها ويدعمها ، وينفي عنها الخوف والجبن والحرص الغبي ، ويردها إلى الطريق الحق ، وهكذا آمن (إقبال) (بالفردية) أو (الذاتية) لأنها الأصل ومنها البداية ، وإهمال (الذات) هو الجهل بأصل الداء ... ورأس البلاء .

وشيء آخر أدركه (إقبال) .

إن الناس يهابون الحكام ويخافونهم ، وليت الأمر وقف عند

هذا الحد ، لكن هذا الخوف ، وتلك الهيبة أصبحت ضرباً من العبودية المقيتة ، ونوعاً من التأليــه السخيف ، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار ، أو تنادي عقيرة باحتجاج ، أو يقف إنسان ليعترض على باطل.. لذلك صار العسف فريضة ، والقانون هوى متبعاً ، والمثل العليا مطية للأغراض والشهوات الجامحة ، فليس عجباً أن تذل النفوس ، وتصبح أشد طغياناً من الجاهلية الاولى غير أن أوثان الجاهلية الاولى كانت من حجر أو خشب ، أما الأصنام الحديثة فمن لحم ودم ، ويصف (إقبال) هــذه الحالة قائلاً :

« ان لأصنام ما زال المسلمون يعبدونها حتى اليوم ، وان ادعوا الإيمان بالله ، وإن لهذه الأصنام صوراً عـديدة ، وألواناً شتى .. ويا حبذا لو علم المسلم الذي ينشد الهداية أن سجوده في الصلاة لله وحده ، خير له وأجدى عليه من هـــذا (الشرك الحديث) .

وأن السجود لله هو الخير والنجاة ، وإن كان ثقيلاً علينا :

تلون في كل ثوب (مناة) [1] وشاب بنو الدهر وهي فتاة
فهذا السجود الذي تجتويه به من ألوف السجود نجاة

---

(١) مناة : صنم كان يعبد في الجاهلية .

فما معنى كل هذا ؟

لا معنى له إلا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد والضلال، فشوهت عقيدة التوحيد ، فكان أن اتخذوا من قصور أمرائهم وحكامهم ومستعمريهم معابد يطوفون حولها ، ويجثون بأبوابها ، ويمرغون شرفهم وكرامتهم ومجدهم في ترابها ، كما أنهم قصدوا أضرحة الأولياء ، وأقبية الموتى ، وحثوا اليها المطايا ، وزفوا اليها الركبان ضارعين مستغفرين لذنوبهم ، ولا ذنب إلا خمولهم ، راجين الشفاء والعافية والأرزاق، والشفاء أقرب اليهم من حبل الوريد .

وتيقن (إقبال) أن المرض الثاني والداء العضال الذي انتاب المسلمين ، هو فساد التوحيد .

أما الشيء الثالث الذي علمه (إقبال) فقد كان مؤلماً حقاً !.

إن المسلم إذا نظر لهوان حـــاله ، وضعة قدره ، صدمته الحقيقة المرّة وهاله الأمر الواقع ، وبدلاً من أن ينفض عن كاهله غبار التقاعس والتقاعد ، ويقفز من جديد إلى سلم المجد والكفاح تراه يقول : وماذا أعمل ؟؟.. ما بيدي حيلة ، هــذا قضاء الله وقدره ، وتلك إرادته ومشيئته ، وليس عـــليّ إلا الرضوخ والاستسلام لأمر الله ، فهل أتمرد وأثور على سنن الله وإرادته ؟ لا شك أن هذا خبال وسوء أدب ومروق وفسوق !... هكذا

يقول المسلم لنفسه دون أن يأخذ للأمر عدّته ، ويصاول الحياة ويصارعها ، كي يهزم صعابها ، ويتغلب على عقباتها ، حتى يصل إلى المرتبة التي أرادها الله له .

وفكر (إقبال) في هـذا الداء الجديد ، أو الداء الثالث ، وبعد أن فهم أعراضه ومضاعفاته شخّصه قائلاً : إن هـذا هو التواكل .. فالمسلمون ينسون أن لهم إرادة مضمونهـا الحرية والاختيار لا الجـبر والقهر والإرغام ، وأن الانسان مخيّر لا مسيّر !..

وإذا شئت أن ترى كيف عرض (إقبال) هذه الصورة في حوار شعري بديع أخذه عن (محيي الدين بن عربي) ، فانظر هذه القصيدة التي يدور فيها الحوار بين (الله) سبحانه وتعالى، وبين (إبليس) في حضور الملائكة .

إن (إبليس) يظهر أولاً إيمانه بوحدانية الله وقدرته،ثم ينفي عن نفسه الكبر والمروق ويقول : يا رب إنني لم أسجد لآدم إلا لأنك كتبت في علم غيبك أنني لن أسجد فما ذنبي ؟.. فيرد عليه الخالق سبحانه بمـا يفحمه ويربكه فيقول سبحانه : هل عرفت ذلك الأمر وهذا القدر المكتوب قبل أن تعصى أم بعد العصيان؟ فلا يسع إبليس إلا الإقرار بجرمه ، والاعتراف بذنبه ، وأنـه ليس بريئاً من تحمل المسئولية ، وها هي ذي القطعة شعراً كما ترجمها (الدكتور عزام) :

إبليس : يا إلهاً أمره كن ليس عنه من محيد
ويل غر من زمان ومكان في حدود
كيف أستكبر عن أمرك أو كيف أحيد؟
كان في علمك أني حائد عن ذا السجود

الخالق : هل عرفت السر هذا قبل أو بعد الجحود؟

إبليس : بعـــد ، يا من تجليه كمالات الوجود

الخالق : (ناظراً الى الملائكة)

خسه الفطرة فيه علمته ذاك عذر
قال : ما شئت سجودي أنا لا أملك أمرا
ذلك الظـالم سمى اختياراً فيه جبرا
انـــه سمى رماداً شعلة فيه وجمرا

و (إقبال) الذي أراد أن يكون طليعة إيقاظ ، ورسول بعث ثائر في هذه الامة قد هاله أمر عظيم وموضوع ذو خطر ، هو أن المسلمين ينظرون إلى ما يعتريهم من آلام ، ويكتنف حياتهم من نكبات، ينظرون الى ذلك كله على أنه عنوان للحظ المنحوس ، وسوء الطالع ، ويحسبون أن الحيـاة السهلة الهينة ، والنعمة السخية الوفيرة هي الدليل الأوحد على رضى الله وحبه لعبده ، ورحمته به .. لقـد أغمض المسلمون أعينهم عن منابع دينهم الاولى ، ونسوا أن الله قد يختار أقواماً ، لابتلائه ، حتى

يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب وتبلغ القلوب الحناجر ، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء ، ويحمد الله على الضراء ويصبر عليها ، ويظل يعمل ، ويكافح حتى يخرج من محنته ، وقد ازداد معدنه نفاسة ، وجوهره قيمة وقدراً .

وهذا هو الداء الرابع .. فالمسلمون يستنكفون من الحياة التي يهزها الكفاح ويملؤها النضال ، ويهربون من تحمل الصعاب والآلام ، وينشدون السكون والدعة ولو عاشوا في أكناف العبودية وخمول الذكر ، حتى لكأن الحياة لقمة سائغة ، وقنطرة سهلة ميسورة .

أما الداء التالي فقد كان لا يقل خطورة وأهمية عما قد سلف من أمراض .. ففي هذه الظروف العصيبة وجدت فئة من الناس أدركت الهاوية السحيقة التي تدهور اليها مستقبل الامة ، فهالهم ما رأوا وأتعسهم ما جدّ من امور ، وكان الظن بهم أن يمدوا الى هؤلاء المترددين أسباب النجاة كي يأخذوا بناصرهم ، وينقذوهم من بؤرة الشقاء ، لكنهم كانوا على عكس ذلك تماماً ، فقد انقسموا قسمين :

القسم الأول :

راوده اليأس القاسي ، فلم يجد مناصاً من أن يسدّ أذنيه بأصابعه ، حتى لا يصل إلى سمعه نداءات الضائعين ، واستغاثات الهائمين على وجوههم في أودية الأسى ، ويا لها من جريمة !..

والقسم الثاني :

قبع في الصوامع ، وودع العمران والسكن ، وعاش يعبد الله راهباً قانتاً لله ... ونأى بنفسه عن مهاترات الدنيا ومعارك الحياة ، وقنع بخلوته الضيقة عن العالم الرحيب ، وأغمض عينيه عن أضوائه البرّاقة المضطربة التي لا تعرف الثبات والهدوء !..

وأمسك (إقبــال) بقلمه ليسطر التشخيص للداء الخامس (اليأس والرهبنة) .

ولكم صرخ (إقبال) في هؤلاء الواهمين ذوي الآفاق الضيقة ، كي يعلمهم أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيغ حلاوة الراحة ، ومن لا يتمرغ في أعطاف الصراع والكفاح لا يدري جلال السلام والحرية ، ومن لا يتناول جرعات من الشقاء لا يدرك جمــال السعادة ، لهذا نراه يقول :

إن حباب خمرة الآمال لا ... يرقص إلا فوق أمواج الألم
والله في حكمته علمنــا ... أن انشراح الصدر قبله ألم

●

آلامنا إلى العلا أجنحة ... نعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سر والحياة ظلمة ... وشعلة الآلام للأرواح نور

هــذا بعض ما قال (إقبال) في أولئك الذين ضاقوا ذرعاً

بالآلام وتكاليف الكفاح ، واعتبروهما لعنة سماوية ، وغضبة من الله قد انصبّت عليهم ، أما أولئك اليائسون الذين فقدوا الأمل ، وأماتوا الرجاء ... فقد قذفهم (إقبال) بأمثال السهام الفتاكة حين قال ما ترجمته :

منحت القلوب هياماً جديداً أثرت البعيد به والقريب
ولكن خلقت بأرض بها نفوس العبيد برق تطيب

وشهر سيف القول في وجه هؤلاء اللائذين في حمى الصوامع والكهوف والخلوات ، وكأنه يقول لهم لا تفرّوا من المعركة ، ولا تهربوا من الحياة التي خلقتم لها وخلقت لكم ، فتراه يقول :

خلا الصوفي من حرق وكد شراب (ألست) معذرة البطاله[1]
وفر إلى ترهبه فقير يرى في الشرع معترك البساله
إذا خشي الرجال وغى حياة فتلك هي الهزيمة لا محاله !..

(فالصوفي) الذي تواكل محتجاً بالآية « ألست بربكم ... » و (الفقيه) الذي ودع الحياة إلى دنيا الصوامع والعزلة ، كلاهما هرب من الميدان ، وأشفق من تكاليف الجهاد ، فدهمنا الاستعمار ، واستغلّنا الحكام ، ولم يكن لنا أن نجني غير الهزيمة !..

---

(١) يقصد آية : « ألست بربكم ... الخ » والمعنى أن الكسالى يلقون بأحمالهم على الله ويلوذون بالخمول .

وكان خاتمة المطاف ، وآية البلاء ، وشر الداء تلك النزعة العاتية المجنونة التي تتجه ناحية الغرب وثقافته وحضارته دون فحص او تمحيص ، ومطالبة الناس بالأخذ بها دون قيد او شرط غير مراعين في ذلك ظروف البيئة ، والأحوال الاجتماعية ، والتقاليد المرعية ، والمعتقدات الدينية ، ودون النظر إلى التراث المحلي الذي تناقلته الأجيال في شتى ضروبه وألوانه ومظاهره ، فانبثت تيارات الإلحاد والزندقة ، وشاعت موجات الانحلال وعدم التقيد بشيء من القيم التي توارثوها ، وظنوا أن كل ما أتى به الغرب جميل نافع سواء في النواحي المادية وغير المادية ، ولم يدققوا في وسائل الحضارة الغربية ولا أهدافها ، او الركائز التي تعتمد عليها ، لأن الشعوب كانت جائعة إلى هذا المتاع المادي .. والرقي العلمي والترف الظاهر بعد أن أنهكها الفقر ، وحطمتها الحاجة ، وألهتها الطغيان والفساد ، وآلمها الجمود والرجعية ، فكان أن اندفعت هذا الاندفاع الأرعن، وانساقت هذا الانسياق الأعمى .. وأوشكت أن تنسى أن للروح مطالب كما أن للجسد رغبات .

رأى (إقبال) ذلك وهو الشاعر المؤمن ، والفيلسوف الدارس ، والعالم العامل الذي جاب أنحاء اوروبا ، وارتاد جامعاتها ومنتدياتها ، ودرس تاريخها وقوانينها ومكتشفاتها ومفاسدها ومفاخرها ، فرفع (إقبال) يده عالياً في وجوه الحشود الحمقاء ، التي أسلمت قيادها للغربيين دون قيد او شرط ،

وقال الكثير من شعره في ذلك الموضوع وخلاصته أن سلامة العالم ورفاهيته يتوقفان على .. التوفيق بين حضارة الغرب والشرق ، وحضارة الشرق تبتغي فيما آتاها الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، وتوافق بين العاطفة والعقل ، والوحي والعلم ، والمادة والروح ، وهاك قطعة مترجمة من شعره في منظومة (جاويدنامه) تظهر هذا المعنى :

« في الغرب العقل مصدر الحياة

وفي الشرق (العاطفة) قوام الحياة

وبواسطة الحب (العاطفة) يحيط العقل بالحقائق

فيعزز شغل الحب .. انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد

بالتوفيق بين العقل والعاطفة

... الخ ... » .

●

وضع (إقبال) هذه الأدواء الستة أمام عينيه ...

وفكّر (إقبال) .. فكّر كثيراً في الحياة وكنهها ، وفي مقاييس الهزيمة والنصر ومعايير القيم والمثل العليا ، وفي الخلود وحقيقته ، وكان غاية تفكيره وبحثه إيجاد عالم رشيد ، وإنسانية مترابطة حانية وحياة رخية سعيدة ، وجال ببصره عبر الأجيال

وحقب التاريخ ، حيث رأى الاسلام .. الرسالة الخالدة بين المد والجزر ،وبين الارتفاع والانخفاض،ثم تلفت إلى العالم الغربي الذي ساد وشاد وحارب وملك بعد أن سفك الدماء وأهدر المثل،فهز إقبال رأسه ،وهو موقن أن البداية يجب أن تكون من الإنسان نفسه ، من (ذاته) ... ذاته القوية التي لا تتيه في الآفــاق ، ولكن الآفاق هي التي تتيه فيها لأن كل ما خلق في هـذا العالم مسخر لتلك الذات القوية النامية :

إنمــا الكافر حيرا	ن له الآفاق تيه [1]
وأرى المؤمن كوناً	تاهت الآفــاق فيه

ولقد جعل (إقبال) بداية فلسفته ، ونهايتها : الإيمان بالله ، واتخذه أساساً .

وبعد هذا العرض السريع لبواعث فلسفة (إقبال) ، ما هي إذاً هذه الفلسفة ؟

وسأجيب عن هذا السؤال في حذر واقتصاد ، وإيجاز بعيد عن التعقيد والمصطلحات العلمية ، لأننــا الآن بصدد الكلام عن شعر (إقبـــال) وفلسفته من ناحية معينة ، ومن زاوية خاصة

---

(١) مأخوذة عن (ابن عربي) ، فقد قيل أن مرضعة الرسول لما فقدته لقيها جبريل وقال لهــا : « لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق تتيه فيه » .

تتعلق بحركة البعث الكبرى ، التي اهتزت لهـــا جنبات الهند وتغير بها مصيرها .

وخلاصة فلسفته أنهـــا إسلامية ، وتحمل في ذراتها طاقة البعث لهذه الأمة الراكدة، وأضواء الاستكشاف وأشعة المعرفة التي تزيل الظلمات والغياهب ، الناسجة خيوطها حول هذه الملة الملة البيضاء .

●

هنـــاك فريق من الصوفيين يؤمنون بوحدة الوجود ، ويرون أن الفردية وهم وعبث وأنانية وغرور، وليس لها وجود حقيقي على ظهر البسيطة ، بل الحقيقـــة أن الكائنات وحدة واحدة مرتبطة ، لهذا فهم يرون أن غـاية الإنسان الاندماج الكلي في الوجود ، كما تندمج القطرة الضئيلة في البحر الخضم الواسع ، أو الذرة المتناهية الصغر في كثبان الرمل العريضة الهائلة، ومن هنا كان مذهب الفناء في الله كما يفنى الشعاع الواهي الضعيف ، في دنيا لا نهاية لها من الأضواء والأنوار .

وكذلك آمن أصحاب مذهب الفيلسوف (هيجل) بنظرية الوحدة هذه أعمق الإيمان .

وقف (إقبال) إزاء هؤلاء وهؤلاء وغيرهم ، وقال :

« لا ... بل هـــذا الزعم هو عين الوهم وعين الخيــال والضياع » .

«إن هذا الظن مدعاة لذوبان (الشخصية) وانهيار (الذات)، وخمود الحياة وخمولها ، وأساس للضعف والوهن ، والأرزاء التي اجتاحت الأمة وبدلت حالها .

« إن كل إنسان له كيان ووجود وشخصية قـــائمة بذاتها ، ومميزة عن غيرها تمييزاً جلياً واضحاً .

« ألا ترون أن الله واحد وإن اتصف بكل كمال وتنزّه عن كل وصف ؟

« ألا ترون أن الكائنات — أي هذا الوجود الكبير بما فيه — مجموعة من الفرديات المتباينة ذات الخصائص المعينة ، فهنـــا أشجار ونبات، وهناك طيور وحيوانات ، والأشجار فيها الخوخ والحنطــة والصفصاف ، بل ان النوع الواحد تختلف أفراده في صفاتها ... أنظروا إلى الإنسان — هذا أسود وذاك اصفر، وهذا سقيم وذاك سليم !.

ورغم ان لكل إنسان — او كائن — شخصيته وذاته إلا ان بين هــذه الوحدات او الفرديات نوعاً من التوافق ، وضرباً من التطابق ، وشيئاً من النسق والنظم، ولا شك أن سعينا الغريزي وكفاحنا الفطري يجعلنا دائماً نتقدم إلى الأمام ، وينقلنا تدريجياً

من الفوضى إلى النظام ، أو بمعنى آخر يخلق بيننا ذلك التوافق وذلك التطابق وذلك النسق والنظم .

« ونحن دائماً في حاجة إلى الكفاح والسعي المتصل ونحن في طريقنا إلى الكمال المنشود والمثل العليا المرسومة ، وهذا السعي وهـذا الكفاح هما عمل الكائنات ، وعمل الأجيال المتلاحقة ، وكل جيل عبارة عن حلقة من حلقات نضالنا في سبيل الوصول للكمال ، فعمل الكائنات إذاً مستمر متصل « لا متناه » — فالكائنات إذاً حقيقة غير كاملة .. » فأنا وأنت لبنة مميزة في بناء الوجود الكبير ، وكل لبنة تتعاون مع أختها ، وتبذل قصارى جهدها وطاقتها، حتى يظل البناء شامخاً قوياً لا يتزعزع ولا يرتج بل يكون دائماً في ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة ، ومن حسن السمو والارتفاع .

أنا فرد ذو شخصية مميزة .

وأنت فرد كذلك بذاتك الخاصة .

والغير كذلك .

لكننا نتعاون ونتضامن ونكافح كي تقوى ذات كل منا ، لكي يسعد الكون وترتقي الإنسانية ، ويصل إلى درجة الكمال الأسمى ، ومن هنا سميت فلسفة (إقبال) بفلسفة الذات أو (خودى) .

ولقد ضرب لنا (إقبال) مثلاً عن الفرد، وعن كيفية سلوكه مع المجموع :

هو في الجمع خـــال	ومن الحشد طليـــق
مثل شمع الحفل في الحفل	وحيـــد ورفيـــق
مثل شمس الصبح، فكر	فيـــه نور وبريق
لفظـــه حر يسير	لكن المعنى دقيـــق
نظر فيـــه سديد	عن بني العصر سحيق

إنه وإن كان في مجمع من الناس ، إلا أنه متميز بثاقب فكره، وحدة نظره، وحريته في قول الحق والعدل، مثل الشمعة التي تميزت بنورها ونارها ، وإن كانت رفيقة الجميع ، وفي خضم هذا الحفل الحاشد . فما تعريف الذات او (خودي) عند (إقبال) ؟.

هي حالة من الجهـاد المتصل ، والتوتر النفسي ، والكفاح المستمر ، وكل مـا يطفيء فيها شعلة الحماس للعمل ، ويخمد فيها نورة التوثب ، للنضال والسمو ، فهو قبيح مرذول ، أما الذي يقويها وينميها ويدفعها دفعاً إلى الأمام ويقربها إلى الغاية، ويحفظ عليها حالة التوتر فهو جميل محبوب ، ولأزيد القارىء إيضاحاً أقول : إن الحيـاة إذا خلت من الاجتهاد والعمل والحركة فهي موت وفناء ، ولو كانت الحياة مجردة من الرغبة والعمل ، فماذا يمكن أن يبقى فيها ليشوقنا اليها ؟.. هل يكون هناك من معنى او حكمة لتلك الكنوز من المعادن المخبوءة تحت الارض في الطين

والتراب ، والتي تحتاج الى الحفر والجلد ، كي نستخرجها ؟.

لا خير في حياة نقضيها في صمت وجمود .

ولهذا قال (إقبال) :

« إن الذات تقوى بتوليد المقاصد ، وإيجاد الرغبات وخلق الأماني ، فإذا ما كان للإنسان غاية يسعى اليها ، فلا شك أنه سيجد ويتعب للوصول اليها، ولا بد له أن يتغلب على ما يعترضه من عقبات ، وما يدهمه من صعاب ، ويعالج أمرها بما أوتي من قوة ، وصادق عشق [1] ، لأن الغاية جميلة [2] وتهون إزاءها كل الصعاب والآلام .

أما (شوبنهاور) الفيلسوف الغربي فقد رأى أن الحياة نهايتها الموت ، وأنها طمع وجشع ، والانسان لا تقف آماله عند حد ، انه جائع دائماً ظامىء دائماً ، وطموح دائماً ، يتوق الى المجد ، ويتشوق للتسلط والسيطرة ، وماذا بعد ذلك ؟.. إما أن يئوب بالحسرة والفشل ، فيسخط ويلعن سوء الحظ ، وفساد الطالع ، وقسوة الأقدار ، أما اذا نال شيئاً ، وحقق أمنيته ، فلن يستمتع بها أكثر من أيام او سنوات معدودة ، او عمراً قصيراً ، ثم يعقب ذلك قبر يفغر فاه ليلتهم الفريسة ويحطم

(١ – ٢) سنتكلم عن العشق والغاية فيما بعد .

كيانها ويسحق عظامها ، ويمتص دماءها، و كأن لم تكن شيئاً..
لكن (إقبال) ثار على زعمهم هذا ، و كأني به يقول لهم :

« ويحكم !.. أمن المعقول أن يخلقنا الله عبثاً؟.. أمن المعقول أن تظل الشمس والسموات والارض مدى الدهر وطول الأبد ، ثم نندثر نحن بهذه السرعة فلا تقوم لنا قائمة بعد ذلك ؟.

كلا ، ان الخالق سخّر لنا الكواكب والشمس والقمر ومختلف الكائنات ، وسخّر القوى المادية لنتوسل بها الى ما نريد ، ونتخذها مركباً يسرع بنا نحو الغاية. اذا كان هذا العمر الطويل من نصيب هذا الاكوان المسخرة لنا فما بالك بنا — ونحن أشرف قدراً ، وأعلى منزلة منها — أنمضي هكذا سريعاً ونودع الحياة الى غير رجعة ؟.. ليس هذا صحيحاً !.

هناك شيء اسمه الخلود .

أجل ، الخلود .

فنحن أسمى من أن تكون حياتنا ومضة زمنية قصيرة لا رجعة لها ، ونحن أيضاً أعظم من أن نذوب ونماع في بحر الوجود العريض .

وما الموت إلا البرزخ الذي نتخطاه إلى عالم الخلود ، وما القبر إلا الزورق الصغير الذي يحملنا إلى شاطىء السلام الأخضر

الأبدي ، فالجسم قد يبلى أو قد يموت ، إلا أن (الذات) تأبى الممات ، وترفض الفناء ، لأنها خالدة :

إن صانت الذات المتينة نفسها
أعيت على الأيام كل ممـــات

ولقد وصف (إقبال) عقيدته تلك وعقيدة (أفلاطون) – التي تشبه عقيدة (شوبنهاور) – فقال :

أفلاطون : يبصر الموت عاقل ، فحياة
كشرار يجنح ليـــل يشب
إقبال : ما إلى الموت والحياة التفات
مقصد(الذات)رؤية الذات حسب

إن (أفلاطون) يرى الحياة كالشرارة الخافقة في جنح الظلام، سرعان ما تلفها أكفان العدم ، أما (إقبال) فلا يلتفت إلى حياة أو موت ، بل جل همه أن تقوى ذاته ، وتظل في مدارج سموها ورقيها حتى تحظى برؤية الذات المتكاملة المنزهة ، التي لا شبيه لهـــا ، ألا وهي الذات الإلهية : ففي ظلالها يرفرف الخلود ، وتقف الغايات والآمال ، ولذلك يقول (إقبال) :

« غص في البحر ، وحارب الأمواج ، فإن خلود الحياة في الكفاح » .

ثم يضرب (إقبال) عشرات الأمثلة التي ينتزعها من الطبيعة التي أحبها، ليدلك على قضية الخلود، فيقول : إن انطفاء النجوم بشير بانبلاج الصبح ، وتبديد الظلام ، مثل موتنـا الذي تعقبه الحياة الخالدة ، وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر :

فنـــاء (ملايين) النجوم مبشر
بأضواء شمس في السماوات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة
بخمر حيـــاة في الخلود تجدد

●

وتوديع أيام البراعم مؤذن
بخلق الزهور الباسمات جمـــالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر
فإني أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغيير في الكون ثابت
يغير حـــالاً ثم ينشيء حالا

إن البذرة يدفنونها في ظلمـات الأرض وقبر التراب ، فهل تراها ماتت ، وغشاها البلى ؟... وهل انطفأت نيران حياتها ، مع طول بقائها في ظلمات الأرض؟...كلا.. لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت ، واستعادت حياتهـا من جديد ، وتوشحت بأجمل الأبراد ، وأحلى الأثواب ، وخلقت من موتها حياة جديدة :

لقـد دفنوا في التراب البذورا
فلم تفن في لحـدها الهـامد
ولم تنطفىء نارها في الحيـاة
على طول مرقـدها البـارد

●

لقـد نسجت للحياة القبـاء
وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نمـا غصنها زاهراً واستعادت
من الموت تجديد ذوق الحيـاة

●

وإذا كان للخـلائق نامو
س يرينـا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحيـاة ولكن
بعد ليل الحمام صبح البقاء !

إن من يظن ان تلك الحياة أيام معدودة، لن يكترث بعبودية او حرية ، بل سيقبل الحياة على علاتها ، اذ كل همه أن تمر مروراً وتندثر اندثاراً ، ما دامت بلا غاية ولا فائدة ترجى من ورائها ، فكان لزاماً على (إقبال) أن يخنق تلك التيارات القاتلة القذرة في مهدهـا ، فأخذ العدة لذلك وتهيأ بالسلاح الا وهو فلسفته

الخالدة(فلسفة الذات)التي ذكرها في ديوانه (أسرار الذات).

ثم ماذا يقصد (إقبال) بكلمة العشق ، التي تتردد كثيراً في شعره ؟.

يقول (الأستاذ أبو النصر الهندي) :

« ان العشق في مفهومه المطلق هو الشيء الذي يقوي الذات وينميها، ويدفعها إلى الكمال الخالد، والعشق معناه جذبك الشيء او طلبك إياه ، لتجعله جزءاً من نفسك ، وأسمى صور هـذا العشق واعلاها وافخمها هو توليد المقاصد، هو خلق القيم والغايات ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال !. »

ولقد دلل (إقبال) على أن هذا العشق بمفهومه الحق يدعنا نؤمن ايضاً بمذهبه في (الفردية) ، لأنه يعتقد ان العشق يجعل الطالب فريداً والمطلوب فريداً ايضاً ، فكيف ذلك ؟. إنك إذا طلبت او عشقت شيئاً وتمنيتـه فإن غيرة لا يرضيك ولا يروي غلتك ، لذلك فإن ما تطلبه وتقصده فهو فريد في ذاته ـ مثلك تماماً ـ إذ ان غيره لن يقوم مقامه في اشباعك وارضائك .

فالعشق ـ كما ألمحنـا سابقاً ـ يقوي الذات ، والاستجداء يضعفها ، ويهرق ماء حيويتها وكيانها !.

انه وقود يثير الحركة والتدفق والتدفع ، ويشعل الحماس

ويؤجج العاطفة . وهو الطاقة التي اذا انطلقت لم تعقها السدود ولا القيود، لأن الذات العاشقة فوق الزمان والمكان، وهي القدر وهي القضاء ، فاستمع الى (إقبال) وهو يتحدث عن معراج الرسول ، فيقول :

« ان الذرة الضئيلة الهزيلة اذا سرى في كيانها الشوق لاقت الصقر القوي الجسور ، ساخرة منه هازئة بقوته ، فيفرّ من أمامها ، ولا عجب في ذلك ، فإن الحماس قد قلب أنفاسها الوادعة إلىشرر متقد، وهكذا المسلم الحق إذا ما اعتصم بالشوق والعشق وكانت له غايات ومقاصد أصبح كالسهم المنطلق الذي تسمو غايته عن التوافه والصغائر ، فهي غاية لا شبيه لها غير الكواكب، في علوها ، وفي المعراج أسرار هذا العشق، ومغزى قوة الروح العاشقة :

وذرة طار فيها الشوق صاعدة
تغير في عرصات الشمس والقمر
يا رفقة المرج.. تلقىالصقر مقدمة
دراجة تملأ الأنفاس من شرر
المسلم السهم والأفلاك غايته
سرائر الروح في المعراج فادكر

إن الإنسان — بعاطفته المزوجة بالعشق ، وبقلبه المملوء

بالشوق – يرى ما لا تراه العين المجردة ، ويدرك مـــا لا تدرك الحواس الظاهرة .

والعشق هو الذي يثير الرغبة في الكائنات ، ويوقظ فيها جمرة الحياة ، فتحس بنعمتها وجمالها وروعتها ، وغاية العشق تقوية الذات ورقيها، والسير بها قدماً نحو الحرية والكمال الخالد، وغاية العلم أن يبرز لنا قليلاً من الصفات التي قد لا تثبت على حال ولا يستقر لها قرار ، لأن العلم محض تساؤل حائر ، وفي شك دائم، ولكن العشق جواب رائع لاستفساراتنا وتساؤلنا ، حقاً إنه جواب خافٍ على بعض المغرورين والمخدوعين والنائمين ، لكن تدركه القلوب الواعية ، والأرواح المتوثبة الذكية .

ألا مـــا أروع العشق وأحلاه !... ألا يكفي أن تكون معجزته ملكاً خالداً ، وسلطاناً سامقاً تعنو له الكائنات ؟... ولا أدل على بزوغ هذا الملك ورسوخه من ذلك الفقر [1] الغني ، وهـــذا الدين – دين الله – الذي يسبغ الحب والسعادة على الوجود .

لقـــد علمنا العشق أن الرضوخ للراحة والاستسلام في جوف المنازل وعلى الفراش الوثير ، علمنا أن ذلك في شرعته حرام .. وعلمنـــا أيضاً أن ركوب الأهوال وامتطاء الأخطار واقتحام

---

(١) سنتكلم عن معنى الفقر في شعر (إقبال) فيما بعد .

الصعاب ، ومغالبة أمواج البحر ومصارعتها ، هي الحـــلال في سنّتنا ، الواجبة في شريعتنا، وما عدا ذلك: من راحة وإخلاد للهدوء والسكون ، فهو ضعف، ووهن لا يرضاه الله ، ولا تقرُّه شريعتنا الغرّاء :

قـال لي العلم غروراً « إنما العشق جنون »
قـال لي العشق مجيباً « إنمـا العلم ظنين »
لا تكن سوس كتاب يا أسيراً للظنون

فمن العشق شهود
ومن العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت ثورة في الكائنات
وشهود الذات للعشـ ـق ، وللعلم الصفات
ومن العشق ثبـات وحياة وممـات

علمنا سؤل جلي
عشقنا خافي الجواب

معجزات العشق ملك زانه فقر[1] ودين
وعبيد العشق أدناهم له عرش مكين

---

(١) انظر (١) في ص ٥٨ .

ومن العشق زمان ومكان و (مكين)[1]

إنمـــا العشق يقين
وبه يفتح باب

إلفة المنزل في شرع من الحب حرام
خطر البحر حـلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام

علمنا نسل كتاب
عشقنا أم الكتاب

ويلاحظ أن (إقبال) لم يغمط العلم حقه بل أثبت له فائدته العظيمة ، وجدواه التي لا نستطيع أن ننكرها ، وليس هـــذا بغريب من (إقبال) الذي كان عالماً كبيراً وفيلسوفاً مقداماً ، غير أنه أراد لهذا العـلم الكافر أن يعلن إيمانه بالله ، ويسير جنباً إلى جنب مع العشق أو الإلهـام فيسعد كل منهما بجوار الآخر ، ويسعد العـالم من جراء ذلك الوئام . فالعلم وحده مضل كافر مغرور لا غنى له عن الدين ، كي يكبح جماحه ، ولا غنى له عن العاطفة الطيبة كي ترقق حاشيته ، فإذا كان مع هـذا العلم عشق

(١) هو من يحل في المكان ، وهو لا يستعمل في اللغة العربية كثيراً .

وإيمان وقلب فسينتج من هذا كله (إبراهيم) جديد يحطم (أصنام) الضلال والفسوق والعصيان .

العلم إن لم يضف نجوى الكليم إلى
رأي الحكيم فما للعلم من قدر

لكن كيف يوجد العشق ؟

إن ذلك يكون – كما قال (إقبال) – بحبنا النبي ﷺ ، لأن محمداً كانت سيرته وأخلاقه المثل الأعلى ، وكان بأقواله وأعماله الإنسان الكامل مع الحرب والسلم ، مع الأصدقاء والأعداء، وبمعنى آخر كانت أخلاقه القرآن، ومتى فهم الإنسان هذا الفهم عن (محمد) ﷺ ، ووعى كنه رسالته التوحيدية السامية ، ثم أتبع الفهم والوعي بعشق صاحب هذه الأفضال والميزات ، فقد علم مدى العشق ومعناه عند (إقبال) .

ولا شك أن حبك لمحمد ، وعشقك إياه ، سيدفعك حتماً إلى السير في طريقه ، واقتفاء أثره في حياتك ، وهذا هو الهدف .
ويقول (إقبال) في ذلك :

« كل من يكون متاعه عشق (المصطفى) ، يكون البر والبحر في طرف ذيله » ...

ولفلسفه (إقبال) مراحل ثلاث :

هذه المراحل الثلاث يجب أن يمر بها الإنسان حتى يصل إلى الغاية التي كان (إقبال) ينشدها وهي خلافة الله في الأرض .

المرحلة الاولى : التي يجب أن تمر بها (الذات) هي خلق المقاصد ، وتوليد الرغبات .. وهذه هي صفة الحياة والدافع اليها ، فالحياة بلا هدف ركود وموت ، ويقول الاستاذ (أحمد برويز) صاحب (معارف القرآن) في هذا الصدد أن من يتدبر القرآن الكريم ، يبدو له جلياً أن الاسلام عبارة عن نظام حياة يسمى ديناً .

فقد بيّن القرآن للحياة الانسانية مقاصد ، وحدّ حدوداً ، وجعل للانسان الاختيار والاجتهاد ، غير متعد هذه الحدود وهذه المقاصد ، والحدود لا تتبدل فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة .

فالحياة إذاً آمال متفتحة نابضة ، وغايات نبيلة سامية .

أما المرحلة الثانية لتطور الذات وارتقائها فهي مرحلة النضال المستمر والكفاح المتصل ، أو الجهاد الذي لا يني .. لماذا ؟.. لتحقيق الغايات والأهداف والمقاصد، التي تحدثنا عنها في المرحلة الاولى .. فلن تموت أمة — او فرد — إذا ما اعتصمت بالكفاح والصبر ، ولن يهلك شعب إذا ما تسلح بالجد والمثابرة ، ولن تبلى حضارة اذا ما تحصنت بالعمل الخصيب المنتج والروح القوية

الملتهبة .. وعلى الانسان أن يسخّر الكائنات المادية الطبيعية ، كي تساعده في كفاحه هذا ، وأن يتخذ منها وسائل ومركبات ليستعين بها على العقبات والمشاق ، فما هــــذه الأكوان ، إلا من أجل الانسان وخدمته، وما هذه العوالم المادية إلا رهن مشيئته، لهذا يقول (إقبال) :

الأرض لا تخفي حقيقة جوهري
أنا مقصد التقدير في الأكوان
وحقيقتي نور فمـالي سابحاً
في لجـة الظلمات والأشجان

●

أنا أمة فيما أريد لأمتي
وولايتي دنيا من الأجيــال
وأرى بمنظـار الحقيقة كل ما
يبديه في الحق الصريح خيـالي

●

فاخلق لروحك من زئيرك نشوة
في المجد ترهب في العرين اسودا
واجعل نشيدك قول ربك (لا تخف)
حتى يهاب البرق منك رعودا

والعشق أو الهيام ، هو وقود هذه المرحلة الهامة .

ولقد شرط إقبال هذه المرحلة بثلاثة شروط : لكل شرط منها مغزاه ومعناه في تقوية الذات وتربيتها ، ومن المفيد أن نذكر هذه الشروط الثلاثة ، قبل أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة :

(أ) الشرط الأول : هو الإطاعة والإنقياد لأوامر الله سبحانه ، والعمل على تنفيذ ما أمر به ، والإنتهاء عما نهى عنه ، لأنه هو الخالق الأعظم ، الذي يدري كنه تكويننا ، وسر خلقنا ، ودقائق طبيعتنا ، وخفايا سلوكنا ومشاعرنا وعواطفنا .. ثم أنه - جل وعلا - العليم بما ينفعنا والبصير بما يضرنا والحكيم الذي لا يخطىء في تقدير ... وشتان بين قدرة المخلوق الضعيف الواهي وعظمة الخالق القوي الجبار !.

ولا شك أن طاعة الإنسان لربه إذا كانت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ فهي تملأ القلب سعادة ونوراً ، وتغمره حيوية وإشراقاً مما يسهل عليه تكاليف هذه المرحلة ونفقاتها - مرحلة الكفاح والنضال .

فلو تصورنا مجتمعنا شأن كل أفراده طاعة الله ، والعمل في حدود شرائعه وأحكامه ، فسنجد أن مثل هذا المجتمع لن يحدث فيه تصادم المنافع الخاصة وتصارع المكاسب الفردية ، بل سيكون مجتمعاً متفاهماً متوائماً .. يعيش في ظل المودة والسلام ، ويستمرىء الكفاح والنضال !.

(ب) الشرط الثاني : هو ضبط النفس وهو وثيق الصلة بالشرط الأول ... إن النفس لها نوازع وأغراض ، وتحتدم فيها مشاعر ومطالب وتعتمل فيها شهوات ورغبات ، فلو أطلق لها العنان فسارت بلا كابح يكبحها ، أو منظم ينظمها وينسقها ، كانت النتيجة الحتمية شراء وبلاء !.

لهذا كان من الضروري أن يوضع لهذه النفس الحدود التي تلزمها الجادة ، والرياضة التي تعودها على السلوك المستحب ، والنظام المرغوب فيه ، وليس هذا معناه كبت الغرائز ، والحكم بالإعدام على الطبائع الفطرية .. وإنما المقصود من ذلك تهذيبها ، أو اخراجها في ثوب لائق ، وابرازها بطريقة منظمة مشروعة والمحافظة عليها وتوجيهها الوجهة السليمة التي تدفع إلى الأمام دائماً فتساعد ولا تعوق ، وتسمو ولا تنحط !.

بهذا يتم التعادل والتوازن على وجه ما ، في تلك الذات التي يحتشد فيها كثير من الصفات المتناقضة المتضادة ، وبغير هذا الشرط – ضبط النفس – يحدث التنافر والتضارب بين صفات الذات ومقوماتها .. فتكون النتيجة سيئة .

ولا بد أن إقبال قد فكر كثيراً في معنى الحديث النبوي الشريف الذي قاله الرسول لأصحابه حينما عادوا من الحرب : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا : « وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟. قال : جهاد النفس » !.

وبهذين الشرطين سالفي الذكر – طاعة الله وضبط النفس – تصفو النفس من اكدارها ، وتنقي الأفكار من أدرانها وأوشابها، أي أن الإنسان يتطهر قولاً وعملاً، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الشرط الثالث وهو :

(ج) نيابة الله في الأرض ، ونيابة الله لا تعني الحلول محله سبحانه لأن ذلك يستلزم خلو المحل وانعدام شاغله أولاً ، كما يقول الفلاسفة ، وإنما يعنى بنيابة الله القوة التنفيذية التي تتولى اجراء حدود الله وشريعته – أحكام القرآن – وهـذه القوة التنفيذيةتتحلى بالعدلوالرحمة وبعد النظر والإيمان العميق وتتجلى في الذات الكاملة القوية ، التي تعتبر كل ما يقويها خيراً محضاً وكل ما يضعفها شراً محضاً ، ويصور (إقبال) الذات في هذه المرحلة تصويراً دقيقاً فيقول : إن الذات آنذاك ستكون خالدة باقية وليست كلمحات النجوم الفانية ، وإن محضرها وغيبتها كلاهما خير بركة وأنها بريئـة من العبودية والرق لغير الله ، فتصبح (الذات) سيدة للإنس والجن ، ولا غرابة في ذلك ، فهي مكان النيابة لله عز وجل .

رأيت الكواكب لمحات نور وذاتك (بالعشق) رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون فعفت من اللون كل القيود
وغيبة (ذاتك) ذكر وفكر ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت الروح آلام رق ففنك عبـد رهين سجود
وإن عرفت قدرها كنت حقاً على الإنس والجن رب الجنود

وبانتهائنا من الشرط الثالث نأتي إلى المرحلة الثالثة ، هـذه المرحلة هي مقـام المؤمن الكامل ، صاحب الإرادة والاختيار ، الذي يغلب الدنيـا ولا تغلبه ، ويقهر الوجود ولا يقهره ، ولا يهاب الموت بل يبتسم له ويعتبره البرزخ إلى عالم الخلود الأبدي... إنه المؤمن الذي يسخر الكائنات ، ويخضع له الوجود ، ويملك الكثير من عرض الدنيا، لكنه لا يستهويه أو يغريه أو يستعبده بل هو مع ملكيته للدنيا طليق منها، حر من قيودها وإغرائها، وهو ما يعبر عنه (إقبال) بالفقير أو القلندر (الدرويش) إنه سلطان الوجود في حوزته الكثير لكنه في غنى عنه ، لهذا قـد يكون الإنسان ملكاً ذا خدم وحشم ، ومـال وفير ، وسلطة محدودة ، لكنه (بذاته) القوية القانعة فقير أو قلندر ، وهذا معنى كلمة الصمد ، وهي إحدى صفات الله تعالى .

ومثل هـــذا المؤمن الكامل يظل يصعد في مدارج السمو والرفعة، محاولاً أن يتصف بصفات الله، ومحاولاً التقرب بصفاته الربانية إلى الذات المطلقة ... ذات الخالق الأعظم ، وهـــذا مصداق الحديث : « تخلقوا بأخلاق الله » ... ومصداق الآية : « كونوا ربانيين » .

عندئذ إذا نطق هـــذا المؤمن الكامل ، الذي يشق طريقه اللانهائي إلى الكمال ، إذا نطق فبالصدق ، وإذا أتى عملاً كان صواباً، وإذا حكم حكماً كان عدلاً وحقاً، وإذا دقق النظر أدرك حقـائق الأشياء .. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) في حديث

قدسي عن رسول الله ﷺ : « من عادى لي ولياً آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى احبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه » .. رواه (البخاري) .

تلك هي المرحلة الأخيرة لتربية (الذات) ، والجماعة التي تتكون من أفراد تلك صفاتهم هي الأمة المسلمة الحقة ، فالأمة فالأمة المسلمة في نظر (إقبال) مجموعة من الذوات الكاملة أو التي في طريقها الى الكمال ، ومثل هذه الامة جديرة بقيادة البشرية إلى سبيل السلام والنور والحب والخير، «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله».

وفي مثل هذه الأمة المثالية يقول (إقبال) :

« انها تعلو فوق الامم ، لأنها أمة نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة امور الخلق ، لأن النوم والتعب محرمان عليها .

انها في البساتين عندليب حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض .

الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ،

كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه (درويشاً).

وفي قصيدته (طلوع اسلام) يقول :

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها .

فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام .

ان الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلوداً من الدنيا لك مجد الأزل ولك نعيم الأبد أيضاً وأنت رسالة الله الاخيرة في الارض لذلك فأنت موصول الدوام. اقرأ مرة اخرى في سيرتك الاولى ، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة ، لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية . هـــذه هي مقاصد الفطرة الاولى ورمز الاسلام الحقيقي : أن تملك العالم بالاخوة وتحكمه بالمحبـــة ، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى) ؟.

أكانت هناك في العالم قوة تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) وفقر (أبي ذر) وصدق (سلمان) ؟.

ان نظرة المؤمن تغير الأقدار » .

تلك هي الخطوط الرئيسية لفلسفة (إقبال) ، فلسفة القوة والبعث والأمل والتحرر والخلود .

فهل كانت هــذه الفلسفة دواء للأمراض القتالة التي انتابت الامة الاسلامية المضيعة أم لا ؟.

وهل استطاع (إقبال) أن ينفخ في نفير البعث فيوقظ النيام ويحيي الرميم ؟.

إقبال والفن

الإنسان .. ذلك الكائن العجيب.. ما طبيعته ؟ وما كنهه؟

إنه قبضة من تراب شرفتها نفحة قدسيةمن روح الله أو أضاء ظلمتها الأرضية ومضة من نور الله القدسي الأسنى ، فنتج عن ذلك هذا المخلوق الذي تلتقي فيه روحانية السماء ، ومادية الأرض ، فصارت الحياة معركة دائمة لا ينتصر فيها إلا من عرف ذاته ، وبدأ رحلته من نفسه !.

من هذه الزاوية نظر (إقبال) إلى الحياة والناس ثم كون آراءه ومعتقداته على أساسها ، فكانت فلسفته التي ذكرنا موجزاً لها .

الفن :

ما هو ؟. وما غايته ؟.

إنه ذلك الإنتاج الفذ ، أو العمل الرائع الذي تخرجه عقول ذات ميزة واستعداد خاص والذي ينبع من صميم الوجدان النابض ، والشعور الواعي والذي يصور مكنونات الصدور ومخزون الأفكار في براعة وإبداع والذي يرسم للحياة صوراً ناطقة صادقة .

فالفن باعث للنور في دياجي الحياة ، مرسل للبهجة في آفاقها حامل لمشعل الأمل والهداية في جنباتها ، جاعل من مادتها الثرية الفريدة متعة للنفس ، وسعادة للروح ، وتسلية لها في حياتها الصاخبة — فما قيمة الفن إذا لم يغرد للمكافحين أناشيد البطولة ؟. وما جدواه إذا لم يفتتح الآفاق في وجوه البائسين ، ويوسع الآمال أمام الضائقين المتكدرين ، وما نفعه إذا لم يأخذ بيد الحائر ؟. فالفن بألوانه المختلفة هو الزاد الروحي والشراب المعنوي لهذه الجموع الزاحفة نحو الكمال في طريق الخلود الأبدي.

لهذا فالفن نور وهداية وغيث وغوث ورفيق وأنيس ولهذا كانت غايته خيراً محضاً وهنا يلتقي الفن بالدين ويضع يده في يده ويسمو بالإنسانية نحو القمة المرموقة والآفاق الرحيبة التي تموج بما يسعد الحياة ويجعلها جديرة بالاحترام والحب .

أما أولئك الذين يؤمنون بمذهب الفن للفن دون التقيد بغاية معينة أو هدف خاص ، ودون الالتفات إلى الناحية الخلقية فقد كان إقبال ينفر منهم بطبعه لأن المسلم محاسب على كل ما يكتب

ويعمل ويقول فلا تنفعه المتعة الفارغة، ولا يتفق مع مبادئه القاء الكلام جزافاً باسم التعبير عن لذات والترجمة عن شتى الأحاسيس.

الفن والذات :

من هنا كان الفن يبعث في الذات القوة ، ويحمل لها الأماني والآمال ويبعث فيها الحرارة والعشق والنزوع إلى الترقي ، ويحررها من أصفاد الأوهام ويخلصها من قيود التردد والخوف ، مثل هذا الفن هو الذي يعشقه (إقبال) ، ويدعو اليه فناني عصره، فالشعر اذا كان لإزجاء الوقت والمتعة العابرة فلا كان ولا كانت أوزانه :

الدين والفن والتدبير والخطب
والشعر والنثر والتحرير والكتب
ان تحفظ (الذات) هذي [1] فالحياة بها
أو لم تطق ذاك فهي السحر والكذب
كم أمة تحت تلك الشمس قد خزيت
إذ جانب (الذات) فيها الدين والأدب

حتى الغناء لا بد أن يغذي الذات بعناصر القوة والبقـاء ،

---

(١) يقصد الاشياء المذكورة في البيت الاول .

فكيف نعزف ألحان التشبيب والغزل المائع ونحن في معركة نحاول فيها أن نتمسك بأهداب حضارتنا وأمجادنا وديننا ؟.

أليس من العار والخجل أن تختلط قعقعات السلاح بمعسول العبارات والكلمات المثيرة للحيوانية الكامنة فينا ؟. لهذا يصيح (إقبال) قائلاً :

ان سرت في اللحون دعوة موت
حرم الناي عندنا والرباب

والرقص عند (إقبال) ليس كما يزعم الغربيون حركات بهلوانية وخصوراً تلتف حولها سواعد، وصدوراً عارمة بالشهوة تلتقي بصدور ، وإبراز للمفاتن وإثارة للكامن من الغرائز .. فليس الرقص بصورته المادية الظاهرة ، بالذي يرضي إقبال لأنه خلاعة ومجون ، لكن للأرواح رقصاً من نوع آخر ، ونشوة من نوع غريب ، قوامها ذات كاملة قوية تعرف الطريق الى الله .

دع لأهل الغرب رقصاً بجسوم
ان رقص الروح من ضرب الكليم[1]
فبهذا الرقص سلطان وفقر
وبذاك الرقص هم لا يريم

---

(١) ضرب الكليم : معناه الأصلي هو ضرب (موسى) الحجر بعصاه ليفجر الماء من الصخر .

وما قاله (إقبال) في الغناء والرقص..قاله أيضاً في الموسيقى والتصوير وغيرهما ، فالفن يجب أن يجيش بمـا يسمو بالفطرة ، ويصقل ذات الانسان ، ويهذبها .

(اقبال) والشعر :

إقبال شاعر فيلسوف،فكيف التقى الشعر بالفلسفة في صعيد واحد؟ فقد زعموا أن الشعر خيال هائم لا يعرف القيود والبنود إلا قليلاً والفلسفة وقائع وحقائق لا خيال في منهاجها بل منطق وتسلسل وإيجاد مسببات ثم الانتهاء إلى نتائج .

الشعر لين وادع رقراق ، والفلسفة جامدة صلبة .. الشعر يسكر العواطف ، ويداعب القلوب ، ويهز الارواح ، والفلسفة تتخذ طريقها الى العقل تحاوره وتداوره ، وتورثه الكد والتعب — الشعر تحليق ونشوة — أما الفلسفة فهي الجدل والقضايا المردودة وغير المردودة،والمزاعم المنقوضة وغير المنقوضة،لكن مهلاً ا..

اذا كان الشعر كما يقولون فهو إذاً فقاقيع لا تلبث أن تذهب جفاء ، وإذا كان تحليقاً هنا وهناك بلا هدف أو غاية باسم الخيال الخصب والشاعرية العظيمة ، فقد ظلموا الخيـــال ، وتجنوا على الشاعرية .

وقد يقول قائل : فماذا يراد للشعر أن يكون ؟.

أيريدون أن يجعلوا منه هو الآخر فلسفة جامدة سقيمة الأوزان ضحلة الخيال .. عاجزة عن التحليق ؟.

فنجيب قائلين : ان الصورة المرسومة ليست مجرد خطوط وألوان مختلطة بلا دلالات ، أو معان معينة ، والشعر كذلك تنتفي عنه صفته إذا كان قوافي وأوزاناً مجردة وجموحاً في الخيال فحسب .

فحياة الشعر في فكرته السامية ، وجمال الأوزان في معانيها الرائعة ، وحسن القصيدة في دقتها ونظراتها الصادقة ، وخلود الانتاج وعظمته في ترجمته الأمينة عن الوجدان، ولذا يقول أحد مؤرخي (إقبال) :

...والحقيقة أن التفرقة بين الشعر الوجداني والشعر الفلسفي ضئيلة، لأن كليهما يعبر عن عواطف الشاعر وأحاسيسه ، وليست هناك قصيدة عظيمة دون أن تتضمن معاني وأفكاراً أساسية ثم انها لمقدرة عظيمة أن تثبت أفكارك في ثوب شعري جميل !..

ويقول أحــد أدباء الروس المعاصرين (روشكين) : « ان أعظم فن هو الذي ينقل للانسان أعظم عــدد ممكن من الأفكار بأي وسيلة من الوسائل » .

وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفة محضة فننقله بذلك من رياض الزهر وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس

الجدل، وصوامع السفسطة والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل تحتها .. لكنه يريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات وحقائق الوجود وكنه الكائنات وأن يناجي النسائم ويصقل العقول ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات. ان (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات .. يقول (كوليريج) الشاعر والناقد الانجليزي :

« لن يكون الانسان شاعراً كبيراً وناظماً مجيداً دون أن يكون في نفس الوقت فيلسوفاً واعياً ومفكراً دقيقاً، لأن الشعر أريج علم الانسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة !.. »

ولقد كان (إقبال) يعتقد هذا اعتقاداً جازماً ويرى أن الفن محاولات لفهم حقائق الحيـــاة وإبرازها للناس في وضوح وجلاء ، وليس لمجرد الترفيه والتسلية والترف العقلي لإزجاء الوقت .. لهذا قال إقبال :

الشعر فيه من الحيـــاة رسالة
أبدية لا تقبـل التبديلا
إن كان من جبريل فيـــه نفحة
أو كان فيه نفخ اسرافيـــلا

فالشعر عنده له غاية منوطة بــه ورسالة يسعى لتبليغها في

صدق وإخلاص، رسالة يحملها الشعر في مختلف ألوانه سواءأ كان شعراً رقيقاً رزينـاً ، كأنغام (جبريل) ، أو كان قوياً ثائراً صارخاً ، كأصداء البعث والنشور التي ينفخها اسرافيل في صوره ليصعق من في السماوات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى ليوقظهم من جديد .

والرسالة التي يقصدها (إقبال) ،رسالة عامة شاملة لا تحتجزها حدود الهند ، ولا تحتجزها أرجاء آسيا ولا تنتشر أضواؤهـا وآلاؤها على الشرق وحده بل هي للإنسانية جميعها ، وإلى شتى أنواع البشر دون تفرقة من لون أو جنس أو لغة أو معتقدات ، لأنها رسالة لا تؤمن بحدود الزمان أو المكان ، هي رسالةالإسلام الذي منه اشتق فلسفته ، ومن أجله قال شعره ، وعلى هداه رسم لنفسه ، وللناس الخطة المثلى والسبيل السوي .

ألم يبعث لأمتــكم نبي	يوحــدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً	منــار للأخوة والسلام
فـالنهار ألفتكم تولى	وأمسيتم حيارى في الظلام

لهذا لن يستطيع أحد أن ينكر تلك الرسالة الكبيرة التي تضمنها شعر (إقبال) أو ينكر مدى انتشارها الواسع،وشهرتها التي طبقت الآفاق،وما ذلك إلا لأنها رسالة عالمية كبرى استقبلها المفكرون والفلاسفة في شتى أنحاء العالم بالبحث والنقد والتعليق.

و (إقبال) يرى أن شعره قد مر بثلاث مراحل :

أولاً : دور النشأة والتكوين وفيه من سعة الخيال وابتكار المعاني وروح الحب والجمال وطلب العشق — فيه الشيء الكثير من ذلك مما كان يبشر بمستقبل باهر — لكنه كان خالياً من دقة الفكر والتعمق ، وكانت تتجلى فيه الحيرة والقلق وهـذا أمر طبيعي لشاب شاعري المزاج متيقظ الحس يؤلمه مـا وصل إليه حال مواطنيه من البؤس والشقاء !.

وتنتهي هذه الفترة سنة ١٩٠٥ م أي في السنة التي وصل فيها شاعرنا إلى أوروبا ، لينهل من مواردها ، ويقتطف من رياض فلسفتها وفنها ، وهكذا يبدأ الدور الثاني ، الذي استغرق من سنة ١٩٠٥ م إلى ١٩٠٨ م ولقد كان الشاعر فيـه قليل الإنتاج بعد أن استحوذت عليه الأبحاث العلمية والنظريات الحديثة ، والأشواط الفكرية الطويلة ، التي قطعها الأوربيون، حتى أوشك أن يودع الشعر — كما قلنـا — إلى الأبد لولا أستاذه (توماس أرنولد) !.

ولقد كان أثر أوربا بادياً في شعره في هـذه الفترة فاتسعت أفكاره ، وعلت علواً قصرت عنه اللغة (الأوردية) التي كان يكتب بها شعره في بادىء الأمر، فاتخذ الفارسية لغة ثانية لنظمه.

وكان الدور الثالث والأخير بعد عودة الشاعر من أوربا حتى

توفاه الله وفيه بدا شعره عميقاً مكتملاً ، وأضحت المعالم جلية وحلت السكينة والأمن والطمأنينة مكان الحيرة والقلق في نفس الشاعر !.

فأخذ شعره يخطو خطوات سريعة منتظمة نحو الكمال بقدم ثابتة ويقين لا يتزعزع ولا يتقلقل ، وتحول من سلطان المحبة والجمال إلى سلطان الحكمة والكمال ، لأنهما مصدر القوة ومصدر المحبة ومصدر الجمال .. وكتب منظومتيه (أسرار خودي) و (رموز بي خودي) تعرض فيهما لصفات الرجل المؤمن والتربية التي يجب أن يأخذ بها نفسه ، والوسائل والغايات التي يجب أن يعتصم بها ، وتعرض فيهما أيضاً للدولة الاسلامية – وكيف تقوم – وعلى أي أساس تنشأ ، وعوامل قوتها وضعفها ، وسر تقدمها وتأخرها ، ورسالتها التي يجب أن تحملها إلى البشر وعن ماضيها الزاخر وسر عظمته وعن رجالاتها وواجباتها وكل ما يتعلق بها .

هذه عجالة سريعة عن المراحل التي مرّ بها شعر (إقبال) ولا نريد أن نستطرد في ذلك ، لأننا نقصد زاوية خاصة في شعر (إقبال) – كما أسلفنا – ونعني بها موكب البعث الذي يضرب بأقدامه الأرض ، على وقع الأنغام القوية الفتية التي يعزفها (إقبال) .

الحرية في شعر (اقبال) :

(إقبـال) يؤمن بالحرية ويعشقها عشقاً ملك عليه فؤاده ، ويعجبه قول (عمر بن الخطاب) :

« كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟.. » فالحرية عند (إقبال) أساس الوجود ونعمة الحياة وسر البقاء ، أو قل هي الروح الذي يبعث أنفاس الحيوية ، ودم النماء في كيان الأفراد والأمم .. لهذا كان يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة مبـدأ (الاختيار) ولا يرضيه مطلقاً قول القائلين (بالجبرية) ، ويعتقد أيضاً أن (الإيمان بين الجبر والاختيار) .. (حديث نبوي) .

إن الإنسان بتربية (ذاته) وتقويتها والاهتمام بهـا حسب الفلسفة التي اعتنقها (إقبـال) والتي منبعها الشريعة الغراء ، يتدرج من الجبر إلى الاختيار ، فإذا ما وصل إلى المرحلة الثالثة في فلسفة (إقبال) فقد أصبح كامل الحرية ، مطلق الاختيار ، جديراً بالاستاذية والسيطرة وقيادة العالم ، وأهلاً للقب (الفقير) الذي طوع يمينه متاع الدنيا الذي يزهد فيه .

فالحرية إذاً صفة غالية هامة ، عزيزة المنال ، لا تكتسب كاملة إلا لمن بلغ الغاية ، وأحسن السير في طريق تنمية الذات وتربيتها ، وليس معنى ذلك حرمان كل من لم يعتنق هـذه الفلسفة من حريته ، وإنما (إقبال) قد قرن الحرية المطلقة بالرجل الكامل

التربية ، القوي الذات ، والجدير بخلافة الله في الأرض ، أما باقي الأفراد فإن مقدار الحرية يتفاوت بحسب استعدادهم لهـا ، وفهمهم لمدلولها ، فلقـد سخر (إقبال) مر السخرية من هؤلاء الذين فهموا قضية الحرية فهماً أبتر ، وأخذوها مأخذاً ضعيفاً ، فالمسلم الساذج يظن أنه في حرية ما دام يحظى بالشعائر العبادية كالصلاة والصوم ، ومـا عدا ذلك من حرية التصرف في أمر بلاده وشؤون سياستها ، فلا عليه :

للشيخ في الهند أجيزت سجدة
فخال ذا الاسلام حراً سيداً

ومثل هذا المسلم قد فسر (القرآن) حسب هواه وضعفه ، وجعله ذريعة لترك المساعي والكفاح ، مع أن (القرآن) في الماضي كان الأداة التي ملك بها أجدادنا الدنيا :

من القرآن قـد تركوا المساعي
وبالقرآن قـد ملكوا الثريا
تبدلت الضمائر في اسار [1]
فمـا كرهوه صار لهم رضيا

وفي قصيدته (رجال الله) يصف الرجل الحر وصفاً دقيقاً ، فهو الرجل الذي يسدد الضربات ويحيدها ، والذي تجتمع فيـه

---

(١) العبودية .

عظمة الملك وتواضع الصوفي وأخلاقه ، وغزارة علم الفقيه . أي أنه ذو (تاج) و (خرقة) و (قباء) .. فالرجل الحر سر النور والحيــاة ، فطرته مستقيمة تتأبى على الشرور والآثام ، وتنأى بنفسها عن مواطن الضلال والمروق والكفران .

إنمــا الحر من يجيد ضراباً لا الذي حربــه تدور هراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجاً ذا سناء ، وخرقــة وقبـاء
من خفايا ترابهم أخذ الدهر شراراً فصاغ منه ذكاء [1]
فطرة حرة تعاف الدنايا من طواف الاصنام عاشت براء

ويستطرد (إقبال) في تغنيه بالحرية ، وتمجيده لها فاذا ما وازى بين الانسان وغير الانسان جعل الحرية هي الصفة البارزة ، والسمة الواضحة في البشر ، فالأفلاك في سموها وعلو منزلتها مقهورة مشلولة لا حرية لها :

أين منك الأفلاك ؟ انك حر وهي قهر ذهابها والإياب

وانتقل معي الى تلك الروعة حينما يصور ماهية الحيــاة عند الأحرار وعنــد العبيد ، فعيش العبيد خواء وضعة لا معنى فيه للحياة ، أيام متخاذلة بطيئة تحمل في طياتها الملل والخور والجبن ، أما الاحرار فحياتهم تشويق وإشراق ومجالات للسبق والتقدم

---

(١) الشمس .

والإبداع ، حتى لكأن اللحظة الواحدة من حياة أحد الاحرار تعادل عاماً كاملا من حياة الأذلاء الواهنين ، لما في تلك اللحظة من عمل وحيوية ، فحياة الحر مجموعة من الحيوات المليئة ، وحياة العبيد خرافات وأوهام وتطفل وتقاعس ، حتى أفكارهم كالجيفة النتنة المنفرة :

ولحظة الحر عام للذليل فكم
كم تبطىء السير بالعبدان أوقات
ولحظة الحر من خلد رسالته
ولحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة الحر من حق منورة
وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حية بالحر ماثلة
والعبد من غيره تأتي الكرامات

والعبد قد تغتفر له الفلتات ، ولا يلتفت الى تراخيه ونومه وركونه للذلة ، أما الحر فان له على الارض رسالة تحرمه النوم ، وتسلبه الراحة والأمن لأن مبادئه وأهدافه تحتاج الى الكفاح والصبر ، « ليس للحر على الأرض جمام »[١] .

ويهتف إقبال برجال الفن أن يتحرروا من أسار الطبيعة

---

(١) راحة .

وألا يقيدوا أنفسهم وفنهم . بأشكالها المجردة ، ومظاهرها المعروفة ، بل ينبغي أن يظهر كل منهم ذاته ومشاعره في كل ما ينتج ويخرج إلى الأنام من معجزات فنية ، لأن الروح المنطلقة المتحررة فيها فن حر ، والروح المقيدة العاجزة فنها عبد ذليل :

تعالى ضميرك عن كل لون فعفت من اللون كل القيود
إذا أضنت الروح آلام رق ففنك عبد رهين سجود
وإن عرفت قدرها كنت حقاً على الجن والأنس رب الوجود

وهناك نوع من الأدب يدعى (أدب الاستعمار) يتزعمه فئه من المفكرين عاشوا في كنف الاستعمار وطال عليهم الأمد فأولوا المثل العليا ، وحوروا فيها ، كي يفلسفوا خورهم ، ويغطوا انحرافهم وفي نظر إقبال ان هذا النوع من الفن لا يستحق أن يسمى فناً ،ما دام قد انتفت عنه صفة الخلق والتحرر والكرامة :

ليس يخلو زمان شعب ذليل من عليم وشاعر وحكيم
فرقتهم مذاهب القول لكن جمع الآراء مقصد في الصميم
علموا الليث جفلة الظبي واحوا
قصص الأسد في الحديث القديم[1]

همهم غبطة الرقيق برق كل تأويلهم خداع عليم

(١) غاية هؤلاء المفكرين أن يبذروا بذور الضعف والوهن في القلوب !.

وهذا في الواقع تصوير دقيق لحقيقة الفكر في الأمم المغلوبة على أمرها بل هو صورة نفسية صادقة للأمم التي ران عليها التحكم والتسلط ردحاً كبيراً من الزمن ، حتى لكأنما هذه الشعوب قد مسخت وخلقت خلقاً جديداً ، فتبدلت نظرتها وحكمها على الأشياء تبدلاً يدعو للاستغراب .. والدهشة .

وهناك أمر هام من الخطورة بمكان .

فالحرية حق مقدس لكل أمة ولكل فرد من أبنائها .

لكن، أهي حرية التمادي والمغالاة وعدم المبالاة التي لاتكترث بشي، ولا تعبأ بشيء فلا يقيدها حق ، أو تحزنها باطل .؟ فهل تفعل الدول الكبرى القوية ما يحلو لها ؟. وهل تلتهم الأمم الصغيرة كاللقمة السائغة متحررة في عملها ذاك من واجب الإنسانية وعاطفة الأخوة غير عابئة بمثل أو عهود أو مواثيق ؟. إن ذلك وإن كان حرية بالنسبة للقوي فهي ولا شك قهر وإذلال للضعفاء، إنما الحرية الحقة هي تلك التي لا تتعارض مع مصلحة الآخرين وحقهم في الحياة الحرة الشريفة ، فإذا ما انحسر ظل الحرية عن بلد ليبسط رواقه على بلد آخر ، فإني لا أسمي ذلك حرية بل هو عين اللصوصية والجشع . مثل هذا الشعب القوي يستمد حريته من جبروته الأعمى ، لكنه في الحقيقة ليس حراً لأنه عبد هواه، وعبد نهمه وجشعه ، وعبد نفسه الجامحة المتشردة التي لا تعترف بالحرية إلا لنفسها .

أقول لقد كان (إقبال) يفهم الحرية بمعناها الإسلامي الجامع وبمدلولها المطلق الذي لا يعرف أسود ولا أصفر ، ولا يميز بين أحمر وأبيض ، لأن الجميع بشر ، وأناس من حقهم أن يستمعوا بالحرية ، الحرية التي لا تتعارض مع حق الغير ، ولا تصطدم بالمصالح المشروعة للآخرين فلا تكون سلباً هنا وإيجاباً هناك . فالحرية الحقة كالشمس المشرقة التي تطل على هام الجبل ، وتنحدر على السفوح ، ثم تهبط إلى الوديان والأخاديد ، فتتسرب إلى الكوخ المتداعي ، وتتدفق إلى القصر المنيف .

فالحرية بين العالم وهم وزعم وتجارة .

والحرية في الفن .. ماذا بصددها ؟

أيكتب الشاعر مثلاً كل ما يريد ، ويعبر عن كل ما يخطر بباله ؟..

أنا لا أعرف كائناً يعمل كل ما يحلو له ، ويعبر عن كل ما يدرج في خياله إلا كائناً واحداً فقط ، وأعني به المجنون الذي تجرّد من نعمة العقل ، فلا لوم عليه ولا عتاب ، لكن المهم ألا يترك مثل هذا المجنون ليدمر ويخرب حسب ما يهوى ، فماذا يحدث لو ترك على هواه ؟.. لا شيء إلا أن (مجنوناً ولج مصنع الزجاج) — على حد تعبير (إقبال) — فلن يترك آنية إلا وحطمها ، ولا نظاماً إلا وعبث به .

ماذا يحدث إذا كتب الأديب إنتاجاً يتنافى مع الخلق ،

ويحرض على الرذائل ويقضي على الفضائل ؟.. مـاذا يحدث إذا أثار الغرائز وزيّن لها الطريق المعوج، وزوّق لها الأماني الفارغة الماجنة ؟.. ومـــاذا يحدث لو حمل معول هدمه وانقضّ على الأمجاد والمثل الخالدة،ليزيلها ويبني على أنقاضها الرياء والكذب، والنصب الجوفاء التي أملاها عليه خياله السقيم وفكره العقيم ، وشذوذه المزري، مستعملاً مع ذلك عجيب الحيـــلة والاسلوب الملتوي والتلاعب بعواطف الجماهير ؟.

إن (إقبالاً) يؤمن بحرية العقلاء البانين وليس بحرية الجهلاء المجانين الذين لا يؤمن جانبهم إذا ما دخلوا (مصانع الزجاج).. (إقبال) يؤمن بقضية الحرية على أن تجعل من نفسك الطيبة وذاتك المترفعة النزيهة قاضياً عدلا ، في تلك القضية الشائكة ، ولا بد للقاضي من استعداد خاص، وتربية معينة ، حتى يصيب الحق إذا حكم ، ويحسن تسديد الرمية إذا رمى .

وقد يستغل مستغل هذا الرأي فيحدّ من الحرية ويضع لها القيود ، ويثقلها بالأغلال والدعاوى الكاذبة ، ويقيم الحواجز والموانع في سبيلها ظلماً وعدواناً، مثل هذا المستغل سنترك أمره للحرية نفسها ، لأنها ند قوي صارم ولها أعوان وجنود ، ليس من السهل أن ينهزموا أمام الحاقدين والأدعياء .

سنترك أمره للحرية كي توقع عليه العقاب وتثأر منه، وتجعله

عبرة لغيره ممن تحدثه نفسه بالاعتداء عليها أو حتى مجرد المساس بحرمتها مساساً طفيفاً .

تلك هي حقيقة الحرية في رأي (إقبال) المسلم .

ولا يضير الحقيقة أن يفتري عليها المفترون ، ويتجنى المتجنون، ولا يضير الحقيقة أن يستغلها أحدهم شمالاً، ويستغلها الآخر يميناً، لأنها هي نفسها تعرف الطريق وتسير به بلا لف أو دوران ، وتندفع فيه غير عابئة بذوي الكيد والمؤامرات ، لأن الحقيقة قوية خالدة لا تموت .

فللحرية آداب يجب أن تراعى .

ولها حمى يجب أن يظل مصوناً .

ولها أمناء وحراس ، من العيب والجور أن يعتدى عليهم او يحقّروا .

ولها ظل ظليل ، وروضة مونقة يجب ألا تدنس بالجيفة والأقذار .

ولها منطلق سلس مستقيم يجب ألا يوصم بالعوج والإلتواء .

ولها رسالة فوق مستوى التهم والشبهات يجب أن تحترم وتحمل الى الناس ناصعة شفافة منزهة عن الأهواء والأغراض .

وصدق (إقبال) إذ يقول :

بحرية الافكار هلك جماعة اذا لم يكن فيها تدبر عالم
فحرية الافكار في رأس جاهل طريق لرد الناس مثل البهائم

بين التقليد والتجديد :

حيـاة الفرد – كما قلنا في فلسفة (إقبال) – تطور دائم ، ورقي مستمر ، وهي في حاجة دائمـاً الى الانشاء والتجديد ، وبالتالي في حاجة الى المواءمة والتوافق بين ما يجـد ّ وما يبلى ، فالعلاقة بين الجديد والقديم علاقة أبدية ذات فائدة .

أما الاستمساك بالقديم وتأليهه وتقديسه ، والاصرار على أنه هو الغاية التي ما بعدها غاية ،والعظمة التي دونها كل عظمة رغم ما قـد يبدو من عيوب ، ورغم ما يحتاجه من إصلاح وإضافة ، كل هذا يعتبره إقبال جموداً ورجعية ، وتعطيلاً للمواهب الانسانية وإعاقة لموكب الحياة المتقدمة المتطورة ، وتصدياً لسنن الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الاسلام الذي يدين به (إقبال) تأبى هذا وتنكره ، لأنه دين الفطرة السليمة ودين العموم والشمول ، ودين السعة والاستطراد في مدارج الخير ، ودين التوثب والرقي متى انعقدت النية الطيبة ، وبان وجه المنفعة ، ومتى كان التوافق جلياً بين ما نؤمن به وبين ما استجد .

لهذا صاح (إقبال) في جموع المفكرين الجامدين كي يتحرروا من اسار القديم ويحطموا وثاق التقليد الأعمى ،ويقدموا ما عندهم

من فن جليل وانتاج سليم بطريقة مرضية محببة الى النفوس وفي ثوب أنيق جميل يستثير الشوق ، ويجبر على الاحترام والتقدير ، ويلائم ظروف العصر ،ونهضة الحياة وخطاها المتتابعة نحو المجد.

ومن ناحية اخرى لا يترك (إقبال) الحبل على الغارب لكل ثائر على القديم منكر له ، بل يرى المفيد اللائق ، ويلبسه الزي المناسب ثم يبرزه متألقاً جذاباً ، أو بمعنى أصح يبعثه بعثاً جديداً ، فنخاله مبتكراً نابعاً لأول مرة ، لا أثر للبلى عليه ، لهذا ينكر (إقبال) اسلوب اولئك الذين اذا دعوا للتجديد حطموا كل قديم ووصفوه بالفساد وعدم الصلاحية ، ودعوا لدفنه في قاعات المتاحف ، وتركه في ذمة التاريخ .

ان (إقبالاً) ثائر لكنه عاقل في ثورته ..

ومتحرر لكنه لبق في تحرره .

ومجدد لكنه لا يجحد فضل قديمه ولا يتنكر له، بل يفحصه ويمحصه ويأخذ منه ما يريد وما تريد سنن الحياة .

و (إقبال) فيلسوف، والفيلسوف متصف باليقظة والحرص، وبعد النظر ، انه يقول لهؤلاء المتسابقين في جنون إلى منهل كل جديد ، رويدكم تمهلوا ، وتبينوا ، ليس كل جديد جديراً بالأخذ معصوماً من العيوب ، فلكم أيها الناس بصائر وأبصار فضعوا كل ما يأتيكم تحت (مجهر) الفحص والتأكد ، فاذا آمنتم بجدواه ،

وتبين لكم سلامته وميزاته ، وعدم منافاته لخلقكم ومعتقداتكم ، فاقبلوا عليه وأنتم واثقون مطمئنون ، كي تسعدوا وتسعد أجيالكم ، ليس كل قديم مقضياً عليه بالفشل والنبذ ، كما أن كل جديد ليس أهلاً للإيمان به والجري وراءه .

والتقليد في نظره مسخ لشخصية الانسان ، وطغيان على ذاته وإهدار لفرديته ، فالمقلد ، كما يقولون ، يفنى ويذوب في الشخصية التي يقلدها ، ويتبع سبيلها ، ثم انه لن يصل الى الدرجة التي وصلت اليها هذه الشخصية مهما كان اتقانه للتقليد .

جـدة الدنيـــا بتجديد الفكر
ليست الدنيا بصخر أو مدر

ثم يتجه (إقبال) إلى بعض مصلحي الشرق ذوي الأفكار الخادعة التي تشبه فن (السامري) بين قوم (موسى) ، ويقول لهم انكم لم تستمسكوا بالسنن القديمة القوية ، ولم تكلفوا أنفسكم مشقة الأخذ بالسنن الحديثة التي ثبت نفعها وجديتها .

يئست فلا أرجي في أناس لهم فن كفن السامري
سقاة في ربوع الشرق طافوا على الندماء بالكأس الخلي
سحاب ما هوى برقاً قديماً وليس لديـه من برق فتي

إن الشعوب التي لا تجد جديداً تركن اليه وتفيء إلى ظله ،

ولا تجد قديماً تتذرع به وتمشي على منهاجه الصالح ، لا شك أن مثل هـذه الشعوب تقع في ظلام الحيرة القاتلة وتتردى في وهاد الشك والقلق ، اللذين يعوقان تقدمها وسيرها في مواكب النشوء والإرتقاء .

و (إقبال) يقول ان عناصر النشوء والتطور كامنة في خلقنا وطباعنا فما علينا إلا أن نعرفها ، فنثيرها ثم نوجهها التوجيه المفروض لها ، وليست هذه طبيعة الانسان وحده ، فالأغصان في نمو وسمو دائم نحو الفضاء ، والحبـة المدفونة في ظلمة التربة فيها مثل تلك الطاقة التقدمية النزّاعة إلى الصعود .

على كل غصن تبين أن النبا ت مشوق لرحب الفضاء
فما قرّ في ظلمة الترب حب جنون النشوء بـه والنماء
فلا تبغ في فطرة ترك السعي فما ذاك معنى الرضا بالقضاء

لأهـل النماء فضاء فسيح
وما ضاق ملك الإله، فسيحوا

ولا شك أن الخضوع التـام للتقليد بداية الانهيار ، وعلامة الموت :

كيف تجلى حقائق لعيون عميت بالخضوع والتقليد
كيف يحيي الفرنج عرباً وفرساً بفنون تسير نحو اللحود

ويعتقد (إقبـــال) أن الشرق والغرب كلاً منهما يدور في دائرة ضيقة مغلقة من صنعه ، وما زال في شراك القديم.. ولعل متسائلاً يقول :

هل رجال السياسة الغربيون مثلاً ما زالوا في أسر القديم وهم الذين طبقت شهرتهم الآفاق لبراعتهم في الدهاء ، وقوة خططهم في المناورات والمراوغات والسيطرة ، وكثرة تأليفهم في العلوم السياسية والاقتصادية والقانونية؟ والحقيقة أن (إقبالاً) لا يعنى كثيراً بمجرد المظاهر والصور، وإنما الذي يهمه روح تلك السياسة ونتائجها ، إنه يعتقد أن السياسة لم تتجدد ولم تتغير ، اللهم إلا أنهم قننوها وبندوها في قوانين وبنود ، ورسموا لهـا القواعد ، وجعلوها علماً يدرس ، فما روح تلك السياسة إذن ؟ إن روحها يظهر واضحاً جلياً في سياسة (تشرشل) ، وغرور (هتلر) ، وتهور (موسوليني) ، وأحـــلام (نابليون) ، وكتابات (مكيافيللي) ، وإرهاب (ستالين)، ومن قبل أطماع الرومان وقياصرتهم !.

ويوجز إقبـــال رأيه في الأدب الحديث بقوله إنه يجب أن يكون مزيجاً من نسمات العشق وسكبات العقل المؤمن ، وينفر من التقليد :

رأيت العشق يقفو اليوم نهجاً   من العقـــل الالهي القويم
وليس يريق مـــاء الوجه ذلاً   على أعتـــاب محبوب غريم

محـا التقليد في روح قـديم وأحيا الروح في جسد قديم

ويقول محذراً من التقليد في مكان آخر :

أمن (ذات) غيرك تعمر قلباً معاذ الاله ترى أين (ذاتك)؟
كمال المحـاكاة انك تفنى فيكفيك هم الحيـــاة مماتك

وحينما يتكلم (إقبال) عن الرجل العظيم يقول انه وإن كان قد نشأ في زمان سيطر فيه التقليد على كل شيء ، إلا أنه نجـــا بنفسه من هذه الوصمة نظراً لما في طبعه من حب للخلق والتجديد:

نشأته ظلمة التقليد بالنـــاس تحيق
غير أن الطبـع بالابداع والخلق خليق
مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق
لفظـــه حر يسير لكن المعنى دقيق

إن البعد عن التقليد الأعمى طريق موفق ، يثير في الشعوب معنى العزة والاباء والاعتداد بالنفس ، والاعتماد عليها ، فقـــد استطاع إقبال أن يذكر أمته بأنها أهل للخلق والابتكار ،لذلك كان لا يفتأ يذكر الشعب بآبائه الأمجاد الأفاضل ، الذين حملوا مشعل الهداية والتحرر والترقي إلى العالمين في الشرق والغرب :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا وكأن أبحرها رمـال البيد
في محفل الأكوان كان هلالنا بالنصر أوضح من هلال العيد

في كل موقعة رفعنـــا راية للمجد تعلن آية التوحيـــد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا إلا عبيـــداً في اسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتهـا من بعد أصفاد وذل وقيود

الطبيعة في شعر (اقبال) :

إن نظرة الحكيم الحق إلى الأشياء نظرة عميقة فاحصة ولذلك فهي تتعدى المظاهر والأشكال إلى ما وراءها، ولا يكفيها السرد السطحي والوصف المجرد ، لأن هـذا شيء يراه كل إنسان ومن هنا كان عمل الفنان الحق أبعـــد مرمى وأدق غاية من سائر المشاهدين لمناظر الطبيعة ، وصورها المتعددة .

فمثلاً أنا وأنت نرى أمواج البحر الثائرة ، فنقول انها هائجة مضطربة ، أما (إقبال) فلا يكتفي بذلك الوصف بل يفلسفها ويقول : إن ثورة الأمواج صدى لما يعتمل في نفسي من حركة وفوران وحرقة وتوقـــان الى السير في طريق الحرية والقوة والكمال ، لأن (إقبالاً) يؤمن بأن على الفنان أن يسبغ ذاته على الطبيعة ، ويغرقها في روحه ، فيجعلها لا تبدي لنـــا إلا وجه الحقيقة، التي يؤمن بها ، ولا تظهر لنا إلا قوة المعاني التي يعتنقها.

كان (إقبال) يقـدم لك بعض الصور التي يخيل اليك أنك كنت تكنها في نفسك ، لكنك لم تكن تدري كيف تبرزها وتخرجها ، ثم جاء (إقبال) وقدمها لك فريدة مؤثرة موفقة ،

و (إقبال) حين يقدم قضاياه الفلسفية وأفكاره القوية لا يقذف بها اليك بلا حواش أو مقدمات، لكنه يزفها اليك زفافاً شائقاً، شأن الرجل الخبير المتمكن من فنه ، كما أنه ينتزع الدليل القاطع مما يقع تحت بصرك من الطبيعة ومشاهدها المختلفة .

وكان (إقبال) ينكر على أولئك المتصوفة الذين يهيمون فيما وراء الطبيعة ويذكرهم أن دنيانا أجدر بالنظر والالتفات لما فيها من حوادث وأحداث ، وإلا فمعنى انصرافنا عن دنيانا هو ضياعنا ، كالأمس الدابر .

إن حب الدنيا وكراهية الموت كان من أهم الأمراض التي انتابت الشرقيين ، و (إقبال) ، حين معالجته لهذا الداء ، يذكر المسلمين بأن الدنيا مصيرها الى زوال، وأنه لا بد من الموت الذي بعده الخلود الأبدي ، فإذا كان الموت قدراً محتوماً ، ففيمَ الخوف ، وعلامَ الجبن ؟.

تحت نور الأفلاك عيش جميل وأري النور ينطفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمـ ـس نعشاً بكى عليه الأصيل
في سنى البدر للكواكب أكفا ن ، توارى بها الشعاع النحيل
ليس زاد المسافرين سوى الخـ ـوف من الموت والحياة رحيل

ثم ما هي الحياة ؟

إنها صنم يعبده هؤلاء الخائفون المستسلمون ..

أو هي غانية لعوب ماكرة قـد أسرتهم بنظراتها المنكسرة الغاوية، وكان من الواجب أن يأسروها ، أو كما يقول (إقبال): إنهـــا كطائر رخيم الصوت ، جميل الأداء ، ملأ الروض بهجة ومتعة وأثار النشوة في جيد الازهار فرقصت وماست ، فما كان أعذب اللحن وأروعه ، لكنه كان كالحلم الذي يداعب أجفـان النائم حينما يطوف به الكرى ، ثم ينجاب الحلم ولا يتبقى شيء إلا مرارة الذكرى والحسرة على الضائع ... ثم يقول :

لا يعلم الانسان كيف أتى الى دنيا المتاعب أو متى يرحل
ما نحن في الأكوان غير حديقة أزهارها عمـــا قليل تذبل
يا أيها الحرص ابكِ في الدنيا دماً دنياك ليس بها لحيٍّ منزل

ويقول في مكان آخر ، ليؤكد أن الموت ليس معناه الفنـاء ولكنه انتقال الى عالم آخر فيه الخلود والبقاء الأزلي :

كل كون أبلته أيدي الليالي أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعـد حين ليبني منزلاً عالياً وقصراً مشيدا

ويقول :

تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود ارتقـاء

فهو حين يذكر الموت لا يقصد بذلك أن يثني القلوب عن الكفاح والصراع ، ويمـــلأ النفس بالتشاؤم وعدم الاكتراث ،

ويحطم لديها قصور الأمل ، لكنه أراد أن يقول لهم : أقدموا ولا تهابوا الموت فمن الضعف والضلال أن تهابوا الموت في سبيل خلودكم وعزتكم وحريتكم، وهو لا بد ملاقيكم وإن طال الأجل.

والآن أتدري لماذا تشدو الطيور في رقة وجمال وعاطفة جياشة ؟.

إن هناك سبباً لا يخطر على بالك ، والسحب وهي تندفع وتقطع المسافات الواسعة ثم يفيض ماؤها ليروي الظمأ، ويرطب اليباب والقفر ، ما السبب في ذلك ؟.. إنه سبب لا يبرق في مخيلتك أبداً !.. والموج في علوه واصطخابه وطغيانه وعلوه ، ما الذي يثير فيه تلك الطاقة ، ويحرك بين جنبيه تلك النشوة العارمة ؟.

يجيب (إقبال) على حيرتك وتساؤلك بأن سر هذا كله هو الهجران .. أجل الهجران ذلك الذي يثير الرغبة والعشق ، ويؤجج الحنين ويدفع على العمل ، ويزوق المنى ، والمعروف أنه في القرب راحة ، وفي الهجر مشقة وألم ، لكن (إقبالاً) يحول تلك المشقة وهذا الألم الى دافع قوي من دوافع القوة والحيوية والكفاح :

الوصل في الحب غال   وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلو ولكن   عواقب الهجر أحلى

●

في القرب موت الأماني والعيش فيه فنـــاء
والبعد فيه حياة يذكي ضياها الرجاء

●

إن انقـــاد الأماني وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعياً في العـــالم المعمور

●

والسحب حين تراها تسقي الربى واليباب
والموج في البحر يعلو حتى يفوق الهضاب

●

وكل مـــا في البرايا من روعة وجـــلال
لولا يد الهجر فيه لم يزدهر بالجمـــال

ثم انظر لتلك الصورة الحيّة للكائنات ، عندما تفزع من نومها ، على ضجيج الغـــارة التي تشنها جحافل النور على فلول الظلام الهاربة المذعورة ، ثم يعمُّ الصباح أرجـــاء الوجود ، فتتثاءب الحياة وتتمطى ، وتنفض عن جـسدها رداء النوم والقعود وتستقبل موكب الشمس بما هي أهل له من استعداد ، وبما هي جديرة به من لقاء :

حينما يسفر الصباح ندياً ناصعاً في مواكب الاشراق
يغسل النور في المشارق أد ران الدياجي عن حلة الآفاق

●

ويطير الكرى وينتبه العشـ ب وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء في البر والبحـ ر ليستقبلوا عروس الحيـــاة

●

وإذا كان للخلائق ناموس يرينـــا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقـــاء

ولقد كانت البيئه الجغرافية التي عاش فيها (إقبال) معيناً لا ينضب لشعره وزاداً لا ينفد لأفكاره المتواصلة ، فقد تقلب بين الجبال والوديان والشعاب، ورأي الأنهار تنحدر فوق السفوح تسطر حكمة الأبد ، وتتبعثر المياه لتتجمع مرة ثانية ، أو تغوص في الرمال ، لتلتقي بعد ذلك في مجراها من جديد حاملة الرسالة السرمدية، وهي أن الحياة فراق ولقاء ، وصراع وجلاد وجلال وجمال ، وملتقى الأشتات !.

فلنبدأ هذه الرحلة الخالدة مع إقبال ، لأنها وإن كانت رحلة النهر من منبعه إلى مصبه إلا أنها رحلة الإنسان من البداية حتى

النهاية ، ولأنها قصة محسوسة ملموسة لا نبرح نرمقها لاهين ناسين غير مدققين فيها :

من رؤوس الجبال ينحدر النهر طروب الأمواج عذب الأغاني
تنقل الطير عنه بين الروابي ما تبث الغصون من ألحان

●

كخدور الحور الحسان تراه في صفاء البلور حلو الحرير
ثم تمضي تلك المياه ضياعاً في تلال منثورة وصخور

●

قطرات من النمير طوتها في ثنايا الرمال أيدي الفراق
ثم تجري بها الينابيع في الأرض فتحظى بعد النوى بالتلاق

●

فإذا النهر بعد ذلك في مجرا ه يحيي الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمرد في الأ رض وتسقي النخيل والاعنابا

●

وحياة الإنسان نهر سماوي توالت بسيره الأقدار
كلما غاض ماؤه عاد فياضاً ، فما ينقضي له تيار

وهكذا تتآزر آحاد الطبيعة ، ويتعاون أفرادها مع محافظة كل كائن على صفته ـ أو ذاته الخاصة ـ فالطيور تأخذ شدوها، وتتعلم لحنها من الخفقات والأنغام التي تصدر عن النهر ، والماء يسري كالشرايين أو كالفضة الذائبة بين طبقات الأرض ، باحثاً عن الجذور والبذور ، كيما يدفع فيها سر الحياة ، ويذيع فيها روح البقاء والنماء !.

كان (إقبال) مثل الصيدلي الذي يحضر الدواء الشافي ويجده مر المذاق غير مستساغ الطعم لا يقبله المريض، لكن هذا الصيدلي البارع يفكر في الأمر ، ويقدح زناد فكره ويجري التجارب العديدة حتى يتمكن من إضافة مادة معينة ، جميلة الطعم والرائحة ، إلى الدواء المر ، فتحجب مرارته ، وتجعله مستساغاً مقبولا ، دون أن تنقص من فائدته للمريض شيئاً !.

كان هذا شأن (إقبال) في أدائه لأفكاره الناضجة ، وعرضه لفلسفته الخالدة ، فلسفة البعث والتحرر والكمال !.

السخرية في شعر (اقبال) :

إن (إقبالا) المسلم في عقيدته وعمله وأخلاقه إنسان عف اللسان ، شريف المقصد والنوايا ، ويعلم تماماً أن الله يقول :

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » .

فاذا كان الأمر كذلك فكيف يسخر (إقبال) إذن ؟.

لم تكن سخرية (إقبال) إلا لوناً من التأديب والتهذيب، أو إشارة إلى وضع شائن يجب أن يباد ، واعتقاد أحمق ، يجب أن يهال عليه التراب ، وربما كانت سخريته نوعاً من المزاح ، ذلك المزاح الذي يصف المؤرخ به النبي (ص) حينما قال عنه : « كان يمزح ولا يقول إلا حقاً » .

وليست السخرية المحمودة — ان صح أن تسمى كذلك — شيئاً مبتذلاً هيناً يستطيع كل لسن أن يأتيه ، لكنها فن ودراية وعبقرية ، فترى في اللمحة العابرة معاني كثيرة ، وفي الإشارة السريعة مغزى عميق الغور بعيد المقصد ، وفي البيت الواحد أو البيتين إيجازاً متقناً بليغاً يحمل في تركيبه الحكمة البعيدة النظر .

بهذه الطريقة البارعة التي لا تتنافى مع خلق أو دين هاجم (إقبال) أدعياء النبوة في العهد الحديث ، وانهال على أنبياء السياسة وأساطينها تقريعاً لاذعاً ، فلم يفلت منه متجن أو جاحد .. ولم ينج من نقده القوي شارد او وارد ممن استكانوا للاستعمار او خدعوا بالحضارة الغربية على علاتها .. او الذين نصّبوا أنفسهم حماة عن الدين ، وحفاظاً لتراثه ، وهم لا يعلمون منه غير حفظ المتون وإطالة اللحى ، وحبك العمائم .

ثم يتمادون ويفتون بإبطال الجهاد .. و .. و .. الخ .

وقد يقول قائل :

كيف تسنى لهذا الرجل الجادّ (إقبال) أن يقذف بنكاته اللاذعة ونقده المر، وعباراته المضحكة المبكية في آن واحد ؟.

ولكن لا عجب في ذلك أبداً.. فإن العباقرة نفوسهم بعيدة الآفاق وقلوبهم رحيبة الميادين ، يصولون في كل مجال ، ويجوبون في شق المناحي ، لأنهم كبار في أفهامهم ونظراتهم كبـــار في مقدرتهم وإرادتهم وابتكاراتهم ، يسعون الدنيا بأشكالها وألوانها .

ومن أمثلة سخريته الخالدة أن جمـــاعة مأجورة قامت في (الهند) وزعمت أنها باسم الاسلام تفتي وتتكلم وانتظر الناس هناك ماذا تقول هذه الجماعة ، وما أن تكلموا ، حتى كان أمرهم عجباً ، لقد أصدروا فتواهم قائلين بأن هذا العصر عصر المدنية والحضارة ، عصر التقدم الفكري ، ولهذا فإن الدعوة في هـــذه الأيام لا تكون إلا بالقلم والمنطق والتفاهم ، وقرروا أن الجهاد باطل في هـــذا العصر .. ومن خرج عن ذلك فهو خارج عن الاسلام.. وسرعان ما شرع (إقبال) والألم يعتصر نفسه ويحرق فؤاده ، إذ كيف يطالبوننا بالكف عن الجهاد رغم أننا لا نملك سيفاً، ولا نحشد قوة .. بل نحن مستعمرون مستذلون ؟ أما كان

الأجدر بهم أن يسوقوا هـذه الفتوى الى من حكموا الشرق رغماً وقهراً ، واستعبدوا بنيه ، وحكموا القوة لا العدالة ، وركنوا الى السيف لا الى المنطق السليم ؟ انهم سفكوا الدماء ، وأغرقوا العالم في عنفهم وظلمهم وتسلطهم .

قال (إقبال) :

الشيخ أفتى أنـه عصر القلم ما السيف فيه حاكم بين الامم
أما درى الشيخ بأن وعظه في مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم بل قلبه من لذة الموت حرم
فعلمن ترك الجهـاد طاغياً من كفه يسيل في العالم دم ..
أما ترى الغرب بدا مدججاً ليحفظ الباطل في عز عمم
يا مفتياً على الكنيس مشفقاً قد حار في أحكامه أولو الفهم
الحرب في المشرق شر داهم والحرب في المغرب شر لا جرم
ان يبتغ الحق فكيف حاسب المسلم لا الفرنج ذلك الحكم ؟

ولقد كثرت النحل وتعددت المذاهب ، وكثر أيضاً أدعياء النبوة في البنجاب فاتخذ (إقبال) من المسلم البنجابي مثلاً للتقلب والافتراء والزعم .. وإشارة للأفق الضيق والفهم الساذج ، ولِمَ لا ؟.. ألم يبتدعوا النبوات ويسرفوا في الفتوى ، ويفرضوا على الامة المحطمة المستعبدة أن تعيش بغير جهاد ؟.

مجـدد في كل حين مذهباً يحل في مرحـلة ليركبا

في حلبة التحقيق نكس وإذا   خامره داع غوى غلبـــا
حبالة التأويل ان تنصب له   هوى من العش اليها معجبا

وفي مكان آخر يكشف (إقبال) الستر عن تضليل الغرب وخداعه ،ويفضح مدنيته التي ترتكز على النفاق وتحيا على الرياء والكذب .. وذلك عندما أنشىء مسجد (باريس) ، فتراه يتخذ من هـــذا العمل فرصة لإزالة القناع عن نوايا الاستعمار وخفاياه ، وكأنه يقول : أيهـا المعجبون المقدسون لفرنسا نظراً لإقامتها هذا المسجد ، رويدكم .. فإن من بنى هـذا الأثر الديني قد عاث فساداً في الشام ، وخرّب (دمشق) وخنق حرياتها وداس عواطفها لأنها تريد أن تتحرر :

يا نظري لا يخدعنك فنـــه   للزور هـــذا الحرم المغرب
ان الذي شيّد هذا موثناً   (دمشق) من عدوانه تخرب

ويواصل سخريته من الغرب وثوراته المجنونة وأنظمته المضطربة الحائرة وأفكاره المتناقضة .. إن (إقبالاً) يقول للروس : لقد بجلتم الصليب وقدستموه من قبل ، وأرقتم على جوانبه الدماء لتحموا حوضه ، وتحرسوا سدته ، ثم ها أنتم أولاء اليوم تحطمون الصليب وتشنون عليه الحرب العوان ، وتحقرونه وتزدرونه .. ترى ماذا دها كم ؟. لعل الوحي الجديد قد أمركم بهذه الزندقة .

ان سر القضاء جد عجيب   أي سر حوى ضمير الزمان
ليس يألو الصليب كسراً قبيل   كان يرجو النجاة بالصلبان
أمر الوحي ملحدي الروس هدوا   ما بناه القسوس من أوثان

وفي مقطوعة (موسوليني) يتحدث هـــذا الزعيم الايطالي ويوجه خطابه الى الثائرين في وجهـه الواقفين في طريق مطامعه من حكومات الدول الغربية ويقول لهم : ماذا تريدون مني ؟.. ان كنت أنا (موسوليني) أسفك وأدمر ، وأوسع رقعـــة امبراطوريتي ، فأنتم أيها الغاضبون الحاقدون قــد سبقتموني في هذا المضمار ، أتريدون منا نحن أبناء (قيصر) وأحفاد العظام أن نسكر في اللهو والطرب ، أما أنتم فتملكون وتحكمون .. لا تلوموني يا ساسة الغرب فإن مدينتنا هكذا ، وما أظن مدنيتكم إلا كذلك .

كلانا بآلات التمدن آخذ   أتنقم أفعال السيوف حراب؟
وقــد نقموا مني غرام تملك   أما ثار منهم بالضعاف ضراب؟
أينفخ في الأعواد أبنــاء قيصر   ويحيي اليكم عامر ويباب؟
نهبتم خيام البدو والزرع والقرى   وكم كان منكم للعروش نهاب
قصدنا من التمدين قتلا وغارة   أأمسكم فخر ويومي عاب؟

وفي معرض المفارقة بين الشرق والغرب وما بينهما من صلات

قديمـــة وحديثة ، يلمح إقبال إلى قضية سوريا الجريحة آنذاك فيقول : الشام بالأمس قد أهدت (المسيح ابن مريم) إلى الغرب فما بال الغرب اليوم يبعث اليهم بهدايا من النساء والخلاعـــة والموبقات ؟.

أهدت الشام إلى الغرب نبياً هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا من قمـــار ونساء وخمور

وتراه في مكان آخر يدحض مزاعم اليهود ويرد دعواهم على أعقابهم حينما يدعوّن ملكية (فلسطين) ، لأنهـا كانت لهم في قديم الزمان فيقول ساخراً: أما كان للعرب أن يطالبوا بأسبانيا تلك التي ملكوا زمامها في غابر الأيام وملأوا ربوعها علماً ونوراً؟ ثم يعود فيقول أن المستعمر لا يفتأ يردد أنه قد خلص الشام من أيدي الأتراك المستبدين وينسى هـــذا الوهم الغاشم أن الشام قد سقطت في يد استعمار قاس لا يرحم ، وطغيان أليم لا يزول لا يقاس بطغيان الأتراك . ولقد سأله أحد زملائه في جامعة (كمبردج) قائلا :

ـ لـماذا يبعث الأنبياء ومؤسسو الديانات في آسيا دون أوربا ؟.

فأجابه إقبال :

ـ لأن العالم مقسم بين الله والشيطان ، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوربا من نصيب الشيطان .

فرد أحدهم قائلا :

ـ قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان ؟.

فأجاب (إقبال) على الفور :

ـ انهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوربا !.

على هذا النسق العبقري الغريب كان (إقبال) يسوق بعض نظراته العميقة التي تتناول مشاكل الحياة والمجتمع وشئون الدين والسياسة ، وهو في كتاباته لا ينسى الغرض الأسمى، الذي يؤمن به ولا يتجاهل المثل الأعلى الذي ينشده !.

ولقد كان يتناول أعقد الأمور وأشق القضايا بهذا الأسلوب المعجز حتى في الأوقات التي يجتمع فيها حشد كبير من الناس فيلقى بما يراه في شجاعة لا تعرف التراجع وأدب لا يعرف الزلل ولباقة تستنكر كل خروج على العناليد والأوضاع السليمة ، ومن ذلك أنه بينا اشتد الجدال بشأن مسألة الحجاب للمرأة ودارت المناقشات الحامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين فإذا بإقبال يخرج عليهم بحكمته الساخرة الصادقة في آن واحد ويقول لهم :

« إنني أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة في الملاح ولا يحرم منها القباح » . ولقد قال المرحوم (علي الجارم) في إحدى قصائده ما يقرب من هذا المعنى :

« والنفس أغرى بالجمال محجباً » .

ولقد ذكرنا الحديث عن الحجاب بالمرأة وقضيتها فماذا كان رأي (إقبال) إزاء هذه المشكلة المستعصية ؟.

"إقبال" والمــرأة

إنمـــا المرأة لون في رسوم الكائنات
لحنها ينفث نار الو جد في صدر الحياة
ذلك الطين تعــالى فوق أوج النيرات
ما (لأفلاطون) تروي من قضايا معضلات
وهو منها كشرار من ذكى الجمرات

أجل ان المرأة مخلوق بشري له احترامه وتقديسه وليست حيواناً حقيراً كما زعم البراهمة ــ أجداد (إقبال) ــ من قبل، هي كاللون الوسيم الجميل في اللوحة الفنية الرائعة وهي مصدر الجمال والحب والرحمة وآية العطف والحنان والنبل ، وهي أنفاس الربيع الحلوة وأنشودة الحسن العذبة ، وهي مصدر الوجود ، وأم الفلاسفة والحكماء ، ولو أنها لم تتفلسف ، هي المدرسة الأولى للعقل الوليد ، والمعهد الأسنى للطفولة التي تحبو في فجر نشأتها

هي الديدبان اليقظ الحارس لأخطر ثغرة من ثغرات الحيـاة ، وأعني بذلك النشء الجديد، لذلك لا تقل أهمية عن الجندي الذي يحمي الذمار لأنه ابنها ولا تقل خطورة عن الحاكم الجبار المتربع على كرسي الامارة لانها هدهدته في مهده صغيراً ، ورعته غلاماً وأوحت اليه بالحب والسعادة شاباً .. ولا ينقص من قدرها أنها وزيرة في بيتها ، وغيرها وزير في دواوين الحكومة ، ولا يحط من قيمتها أنها تضع التكتيكات وترسم المناهج لمعركة الحياة لابنائها في محيط منزلها، بينما الرجل يخوض الميادين ويبذل الدماء ويقذف بالنار والدمار في ميادين أوسع .. إنها امرأة بطبيعتها وخلقها واستعدادها الفطري !.

ولن تكون رجلاً أبداً إلا إذا مسخت نواميس الكون ، وانتكست سنة الطبيعة ، وبرزت عضلاتها .. واكفهرت ملامحها واخشوشن جلدها وتصلبت نظراتهـــا ، وغاض ينبوع الغذاء والحنان في صدرها ، فأي حرية يطالبون بها للنساء ؟.

إذا كانت حريتها في أن تفك عنها أغلالها المكونة من عقود اللؤلؤ فتمسا لها من حرية تجردها من حريتها وتشوه من جمالها. وإذا كانت حريتها في أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء فهذا شيء لا يماري فيه أحد ما دامت حافظة لحدودها، مبقية على كرامتها وعفتها ، فاهمة لرسالتها الحيوية وواجبها نحو أشبال الغد .. والسفور .. ماذا يقول عنه (إقبال) هو الآخر ؟.

إذا كان السفور رونقاً وجمالا يشبع العيون النهمة ، ويرضي النفوس الجائعة ، فهو ولا شك مطية للزلل ، ووسيلة للانحراف واندفاع في سبيل الغواية والضلال ، إنه على حد تعبير (إقبال) « السفور نور في العين لكنه ظلمة في الصدور » .. ويقول :

إن تجز متعة العيون مداها كان فيها الشتات في التفكير

وإن (إقبـالاً) لينعى على هؤلاء المتشبهين بالغرب وأولئك الذين يؤمنون بتقليده في كل شيء فيستجيبون لدعوة السفور ، ولو أنهم نظروا الى الاحصائيات التي قاموا بها عن مدى التدهور الخلقي والانحطاط المعنوي والضياع العائلي ، لو أنهم ألقوا نظرة واحدة على هـ .ه الاحصائيات وقارنوها بغيرها ممن لا يعترفون بالسفور ، وحكموا المنطق السليم وحـده ، لخرجوا بالنتيجة الحتمية ، وهي أن السفور بوضعه الراهن وأخطاره الحالية لعنة أي لعنة وبلاء مقيم ، والحجاب الممقوت حقاً هو ذلك الذي يغلف الذات ، ويحبسها وراء أقنعـة من الضعف والأوهام ، ويحيطها بسياج من الجمود والضيق والعبث ، فحجـاب (الذات) شر لا يدانيه شر ، لأنها تكون آنذاك مقبورة مضيعة .

عشرة الافرنج نهج مفسد جهل الحمقى طباع المحصنات

إن الغرب يزعم أن السفور والتحرر والانطلاق للمرأة حصانة لها من الكبت ، وعاصم لها من الزلل ، ومنقـذ لها من

الحرمان الذي يدفع بالنفس الى ارتكاب الآثام والبحث عنها في خفية من الأعين .. لكن (إقبالا) يرى أن الحصانة الحقيقية في يدي رجل قوي قادر مؤمن واعٍ ، فلن يجدي الحجاب إزاء رجل منحلّ ضعيف ، ولن ينفع العلم إذا كان الزوج مستهتراً متهاوناً .

حفظ الانوثة في يدي رجل   لا العلم يحفظها ولا الحجب

ولا يعني (إقبال) بذلك أن تستعبد المرأة وتحتقر ، ويكون الرجل لها بمثابة سجان جاف الطباع غليظ القلب ، كلا .. فالعلاقة بينهما تقوم على أساس المحبة والاحترام المتبادل والثقة والتآزر ، على أن تحفظ المرأة قدسية بيتها ، وكرامة زوجها ، وعفة نفسها ، ولا تتمرد على الصفة التي هيّأتها لها الطبيعة .

وقضية تعليم المرأة كانت من المشاكل التي واجهت (إقبالا) . إن (إقبالا) لن يتناول كل علم وفن بالتفصيل ، ويبين مدى ملاءمة كل شيء لها ، فهو مؤمن بأن العلم نور وبعث وانطلاق الى الأمام في سبيل الوصول الى الذات الكاملة المؤمنة ، لكن أي علم يقصده (إقبال) ؟.. فإذا كان التعليم سيخرج بها عن دائرة الأمومة ، ويشذ بها عن استمدادها الفطري ورسالتها المقدسة ، فهو عين الجهل والحماقة ، لأنه علم ينتزع من قلبها المشاعر الخالدة والعواطف النظيفة السماوية والإحساسات النبيلة التي تعتز بها الإنسانية كتراث رائع أبدي، ولأنه تعليم لا يغرس فيها مبادىء

الدين السامية ، وبذور الخلق القويم ، ولا يبين لهـــا الحدود المرعية التي تقف عنـدها ، وعندئذ قل على الحب وعلى الحق والخير العفاء :

موت الأمومة إن رامت حضارتهم
فالموت عاقبـــة الانسان في الغرب
ان يجعـــل المرأة التعليم لا امرأة
فالعـــلم موت يراه صاحب القلب
ان تحرمن الفتـــاة الدين مدرسة
فالعلم والفن موت العشق والحب

و (إقبال) حينما يثبت هـــذه الحقائق التي لا جدال فيها ولا مراء ، يعترف بأن المرأة قد تحملت تبعـــة قاسية ، وحملاً ثقيلاً ، لكن ما الحيلة في ذلك ؟.. هكذا أرادت لهـــا الطبيعة هذا الوضع، وهكذا رسمت لها الفطرة ذلك المنهاج الذي اختاره الله لها ، فلا حيلة لنـــا في ذلك .. وأي تمرد وثورة على الفطرة عبث لا طائل تحته :

كذلكم في فؤادي للنساء أسى   لكنها عقدة أعيت على الحيل

تلك عجالة سريعة عن رأي (إقبال) في موضوع المرأة .

النزعة الإنسانية والعالمية في شعر إقبال

« ... يا ضياء الإنسانية والإخــــاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس ، عسى أن تشاهد الأمم مرة اخرى وجه السعادة التي اختفت خلف مطامع المتحاربين » .

هـــذا بعض ما قاله (إقبال) ، حينما كان يحلم بعالم تسوده المحبة والإخاء وتتحطم فيه ــ كما أسلفنا ــ حواجز الدم واللون والجنس ، وتندثر أحقاد الطبقات التي لا تقوم إلا على مشاعر البغض والتناحر والاستبداد .. لقد كان يهفو الى عالم نظيف ، قد هجعت فيه الحروب ، واستكانت المطامع الحمراء ، ونامت الأهواء الكافرة .

ونظر (إقبال) بعين الحقيقة والواقع الى العــالم الحديث ،

فبدَتْ له أمراضه واضحة كالشمس ، فكان أول ما راود ذهنه أن ينقذ السقيم مما دهاه ، لذا وضع فلسفته الخالدة ، التي ارتآها لأنها وقود الخلاص ، وروح البعث الانساني ، وحادى القافلة العالمية الى طريق السعادة والهدى .

وقد التزم في فلسفته جادة الاسلام ، واتخذها سبيلاً الى الحرية بعد أن درس وبحث وفكر وعاش في خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره ، فتيقن أنه لا خلاص للعالم إلا بدواء الاسلام — بروحانيته وماديته — كما رأى (برنارد شو) ، و (تولستوي) وغيرهما من فلاسفة الغرب مثل هذا الرأي .

ولم يشغل تفكير (إقبال) قضايا العالم الاسلامي والعالم العربي فحسب ، بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل ، فتحدث عن عصبة الأمم ، وعن هؤلاء الذين يعبثون بقداستها وقوانينها ويسخرونها لأهوائهم ، حتى أنه كان من أول المتنبئين لها بالتمزق والفشل ، لبُعد نظره السياسي ، وناقش نظريات الحكم المختلفة ، وواجه (موسوليني) برأيه في قوة وحزم ، وبسط له تبلبل الأفكار في الأمة الايطالية ، ومغزى الحكم الدكتاتوري ، وتنبأ أيضاً بانهيار إيطاليا السياسي عن قريب ، وقد حدث ما توقعه إبان الحرب العالمية الثانية .

وناقش (إقبال) قضايا الاشتراكية ، واعتقادات الشيوعية ، وفلسفتها ، وضرب بسهم وافر في شرح المذاهب العالمية وماهيتها ، شأن العالِم المتبصر الخبير .

وكثيراً مـا ترى في شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير ، وثورات الشام وهي تناوىء الاستعمار ، وتمرد الهند وهي تدافع الغزاة ، وتحذيره من اليهود وهم يحيكون الألاعيب والمؤامرات، وخطط سماسرة السياسة، ومستغلي الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان .

لقد كان نصيراً لقضايا الحرية في كل مكان في الشرق والغرب، وكان غيوراً على الأخلاق ثائراً على ضياعها، عند الغربيين المنحلين المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين .

وكم كان حزن إقبـال أليماً ، حينما طلّقت تركيا إسلامها ، وقضى (كمال أتاتورك) على الخلافـة الاسلامية وعلى صلة تركيا بالعرب ، وقذف بنفسه في أحضان الغرب بلا تحفظ ، ولكم نعى على (رضا بهلوي) في إيران سياسته المتعجرفة التي تؤمن بكل ما يأتي به الغرب، وكان (إقبال) يظن أن أمثال هذه الحركات في (تركيا) و (إيران) وغيرهما ليست إلا خبط عشواء ، والتباس أفكار ومركب نقص ، وإيماناً مطلقاً بروعة المدنيـة الحديثة على علاتهـا ، وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هي يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح في همة ونشاط .

و (إقبال) يرى أن حكم الشعوب يجب أن تسيره الفئـة الفاهمة الواعية والتي لهـا من نضوجها وإيمانها عاصم من الزلل

والميل ، لهذا فهو يأخذ على النظام (الجماهيري) أنه لا يزن الرجال الوزن الحقيقي ، بل يعتمد على العدد لا القيم الشخصية ، وبمعنى آخر قوامه (الكم) لا (الكيف) ، وإقبال بهـذا يرى أنه من الأوفق والأرجح أن يكون للفئات ذات الكفاءة المرموقة كلمتها ورأيهـا ، كما كان في صدر الاسلام بالنسبة لأهل (الحل والعقد) ، لذا يقول (إقبال) :

نظام الجماهير حكم بـه تعد العباد ولا توزن

ومع ذلك فـ (إقبال) يحترم رأي الأغلبية ، ويسير على رأي الجماعـة لأنه صاحب نظرة ديمقراطية سليمة ، وفي نفس الوقت صاحب وجهة نظر طيبة ترفع من قيمة الانسان وتقدّر كفاءته ومواهبه الشخصية .

و (إقبال) لا يفتأ يردد الشكوى من طغاة العـالم الذين يذيقون الشعوب الضعيفة الويلات،ويبكي من أجل السلام الضائع والقوة الغاشمة التي لا قلب لها ولا ضمير .

كم أصاب الانسان في هذه الا رض من اسكندر ومن جنكيز
ويقول التاريخ في كل عصر خطر فرط قوة لعزيز
وهي سم بغير دين ، وبالديـ ـن دواء لكل سم نجـيز

وهكذا ظل (إقبال) طول حياته يحارب السياسة اللادينية في (روسيا) و (تركيا) و (اوروبا) وفي أي مكان ، لأن

(الميكافيللية) ليست كما يرى من الاسلام ، ويعتقد أيضاً أن السياسة اللادينية ستورد الانسان موارد التهلكة والدمار ، وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد .

ما الحق يخف عن فؤاد سره
فلقد حباني الله قلباً مبصرا
فسياسة اللادين عندي خسة
مات الضمير بها وإبليس افترى
لما قلى حكم الفرنج كنيسة
ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
شرهت لأموال العباد كنيسة
فإذا الخميس سفيرها بين الورى

فالاستعمار أنى حط رحاله ، وحيثما ألقى بعصاه ، يأخذ أكثر مما يعطي ويهدم أكثر مما يبني ، ويفسد أكثر مما يصلح ، لأنه يأبى إلا أن يظل محتفظاً بصولجانه ، متمتعاً بسلطانه ، حائزاً على أسباب الثراء والنفوذ !.

لقد كان (إقبال) ينشد البعث لأمم الأرض قاطبة ، ولا يرجوه للمسلمين فحسب ،فحال اوربا في نظره لا ترضي ، وخطتها منحرفة ، وكذلك حال الشرق لا تسرّ .

علة الشرق ذلة واقتداء ونظام الجمهور في الغرب داء
مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعة فلسفته فتشمل القاصي والداني ، وتتناسى الألوان والأجناس وعناصر التفرقة ، فكلهم في نظره يحتاج الى رعاية وعلاج وصحوة ، سواء في ذلك الغاصب والمغصوب ، وإزاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعته الانسانية العامة التي لا تعرف التعصب ، فلا هو بهندي ولا عربي ولا شرقي ولا غربي ، إنه إنسان و كفى ، وبشر يؤمن (بذاته) وإنسانيته ، فقد علمته فلسفته الذاتية أن يحلق فوق مستوى الأهواء والتفرقات :

الى عصبات العرب ما أنا منتم ولست بهندي ولا أنا أعجمي
فقد علمتني (الذات) تحليق نافر يمر على الدارين غير محوم
فدينك تعداد لأنفاس محجم وديني إحراق لأنفاس مقدم

ومع إحساس (إقبال) بهذه النزعة العالمية ، إلا أنه يرى أنه هندي أعجمي بحكم المولد والنشأة ، فيقول : وماذا في ذلك ؟ إذا كنت هندياً في أنغامي ، فإني (عدناني) الصوت مسلم حنيفي ، وإذا كانت كأسي من صنع الأعاجم ، فإن خمرتها حجازية المنبع ، وأفكاري مستمدة من النبي العربي ، وهل الاسلام إلا دين الله في الارض ووصيته الأخيرة الى الناس عامة ، وقد انضوى تحت لوائه الطوراني والساماني ، والشرقي والغربي :

أنا أعجمي الدن لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولقـد توارد في شعر (إقبال) أسماء الأعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة في شتى العصور والبقاع ، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعاً ... تحدث عن (محمد) ﷺ و (عيسى) و (جنكيز) و (الاسكندر) و (نيتشه) و (أفلاطون) ، وتعرض لـ (موسوليني) و (ابن الرومي) و (ابن سينـا) ، وأحنى رأسه إعجاباً بـ (عـلي) و (عمر) و (أبي ذر) ، وتحدث عن الفلاسفة والصوفية والملحدين والمؤمنين ... كل ذلك لأنه كان إنساناً يعيش بكل ذرة من كيانه ، فشعر (إقبال) سجل حافل للأحداث التاريخية والسياسية العالمية، وسفر جليل لماضي الاسلام وحاضره .

(إقبال) و (أبو العلاء المعري) :

يقولون أن (أبا العلاء المعري) وإقبالاً أعظم شاعرين في الإسلام ، والحقيقة أنه لكي نوازن بين الشاعرين نجد كثيراً من المقبات التي تعترض طريقنا ، فقد سبق (أبو العلاء) (إقبالاً) بما يقرب من ألف سنة إلا قليلا ، فظروف العصر والبيئة تختلف اختلافاً بيناً .

هذا مع أن (أبا العلاء) كان يكتب شعره بالعربية في حين أن الأوردية والفارسية همـا اللغتان اللتان كتب بها شاعر الباكستان أشعاره،ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عندما يترجم من لغة لأخرى يفقد كثيراً من مزاياه البلاغية والبيانية ، ولا

يحتفظ في الغالب إلا بالمعنى المجرد والفكرة الغالبة ، وهذه أيضاً قد يتناولها كثير من التحريف أو قليل !.

غير أننا نستطيع أن نستلخص أن لكل منهما فلسفة خاصة ينظر بها إلى الحياة وما بعد الحياة .. إلى الناس ومعتقداتهم وأخلاقهم ، ولقد استطاع شاعر المعرة أن يحظى بقسط وافر جداً من العلوم المختلفة والفنون التي شغلت أفكار عصره ، فلقد قرأ فلسفة الاغريق ، ونظريات الرومان وأكب على ما ترجم من الحضارات الفارسية والهندية وغيرهما ، حتى انك تقرأ في شعره كثيراً من النظريات العلمية ، في مجال الاستشهاد والتشبيهات كالطب والفلك والقضايا الفلسفية والرياضيات والطبيعيات فضلاً عن أنه جوب الآفاق ، وأكثر الأسفار وتلقى العلم على يد كثير من العلماء الاجلاء في شتى عواصم العالم الإسلامي !.

وبالإختصار استطاع (أبو العلاء) — رغم أنه ضرير — أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه في زمانه ، ولقد كان (إقبال) هو الآخر عالماً رحالة ، استوعب كثيراً من فلسفة الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، وألم بالقانون والشريعة الغراء .

ولعل هذه إحدى النقاط التي تشابه فيها شاعرانا العظيمان ، ولقد كان (أبو العلاء) مضرب المثل في الاباء والانفة فلم يتزلف لأمير ولم يمدح عظيماً من العظماء رياء ومداراة ، ولم يجعل شعره مطية مسخرة لنيل المطامع الدنيوية الحقيرة ، وقربه إلى ذوي

الجاه والسلطان بل كسر في نفسه شهوة التطلع إلى ما ليس معه – باستثناء العلم وحده – وحدة التشوق إلى المظاهر الخلابة البراقة ، وما ظنك برجل أقام لنفسه سجناً وحرم عليها لقاء الناس والإختلاط بأسواق الدنيا ومجتمعاتها ، إنه لا شك عظيم السيطرة على أهوائه ومطامعه .

ولقد كان (إقبال) هو الآخر – رحمه الله عزيز النفس حر التفكير عالي الهمة نبا بشخصه بعيداً عن مواطن الشبهات والاسفاف ، وعاش طليقاً متحرراً إلا من رسالته وعقيدته ، بل طلق المناصب الحكومية كلية ، ونصب نفسه حارساً لحرمة الحق ، مدافعاً عن كيان الملة ، نافخاً في بوق البعث الأكبر .

ولعل سمة العزوف عن مطامع الدنيا والفرار من التزلف والتكسب بالشعر صفة مشتركة ثانية لكلا الشاعرين الكبيرين .. لكن شتان بين هذا وذاك .

ان (المعري) عزف عن الدنيا كرهاً لها وتحقيراً لشأنها ، ومقتاً لأهلها اللؤماء والأوغاد الأقذار كما يقول. فهي دنيا مليئة بالغدر والخيانة . والخير (اسطورة) لا وجود لها ، والحب بدعة لا تجوز إلا في عقول المجانين والمخدوعين ، والقناعة والرضا وهم باطل ، بل هما مجرد اسم لأن الناس جميعاً ليسوا إلا طامعين جائعين ، لا يُشبع لهم نهم، ولا يُروى لهم ظمأ، انهم كالوحوش الضارية .. أجل كالوحوش الضارية ، لأنهم يسفكون دماء

بعضهم ، ويدوسون الحقوق، ويسخرون من العدالة ، ولا منطق لديهم إلا القهر والإرغام ، بل ان الوحش الضاري لا يفترس إلا إذا جاع فقط ، أما هؤلاء النــــاس فكلما ازدادوا شبعاً ورياً اشتعلت فيهم الرغبـــة الى المزيد واشتاقوا الى النهب والسلب والفساد ، حتى الوعاظ والعلماء فئة مارقة في نظر (أبي العلاء) ليست تراعي إلا ولا ذمة، وتتجر بالدين، وتتكسب بالشرائع، وتشكلها حسب هواها كيما توائم مصلحتها ومنفعتها . فالواعظ أو الناصح في قوله :

يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمـــد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتهـــا رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهـــة أساء

والحكام أيضاً ليسوا إلا اخوان غود ، وعبّـــاد كأس ، وجلاّس الغيد الحسان ، ورؤساء عصابات يختلسون أقوات الشعب ويهزؤون بحرياتهم ومقدسات حياتهم .

هذه هي الحياة كما بدت (لأبي العلاء) بناسها وعلمائهـــا ووعاظها وحكامها، ومثلها العليا من خير وحب وعدالة وحق، لقد آمن (أبو العلاء) بذلك فزهد في الدنيا ، وتركها غير آسف عليها لأنها دار هوان وشقاء وبلاء لا يريم .

و (إقبال) يرى الدنيا طيبة مرضية ، وأنها لم تخلق عبثاً ، ولم تترك سدى، وأن الناس كلهم ليسوا ملائكة، كما أنهم ليسوا

جميعاً بالشياطين والأبالسة .. انهم بشر رُكّبت فيهم روحانية السماء النورانية ، ومادية الارض النارية . وهاتان القوتان ككفتي ميزان قد ترجح احداهما الاخرى فإذا ما دار الزمن دورته ، أو طرأت ظروف ومؤثرات فقد تنعكس الآية فتشيل احدى الكفتين وترجح الثانية فليس جميع الناس أوغاداً أشراراً لئاماً، فالشر يجانب الخير منذ أن خلق الله النور والظلام وأنشأ (آدم) وصوّر (إبليس) ، وإن من خلق نمرود ونيرون وغيرهما هو نفسه سبحانه الذي أهدى الينا محمداً (ص) و (عيسى) و (موسى) و (أبا بكر) و (ابن الخطاب) .

ولا شك أن الشوائب والأسقام التي تعتري كيان البشرية مثلها كمثل الأمراض التي تكمن في جسد الانسان ، وكلاهما يحتاج الى علاج ومواساة فاذا كانت الأمراض العضوية تعالج بالبتر أو بالعقاقير أو بالمباضع ،فإن أدواء البشرية من شر ونفاق وظلم لها هي الاخرى وسائل للإشفاء .. كانت نظرة إقبال إلى الدنيا إذن نظرة واقعية آملة واعية وأن الانسان نفسه يستطيع أن يخلق من الألم سعادة ، ومن الحرمان لذة ، ومن الكفاح والنضال متعة، ومن الأزمات والنكبات عبرة ودروساً وحافزاً للوثوب ، وأن يصبر ويصابر ويثابر ، وأن يتوكل ولا يتواكل ، وأن ينمي ذاته ويربيها التربية الكاملة التي تصل بها الى مرتبة خلافة الله في الارض ، فيحق الحق ويزهق الباطل ، ويدفع الناس دائماً من حسن الى أحسن في طريق الإيمان والإرادة

القوية .. وإلا فما جدوى السخط على الدنيا وعلى الناس والتنكر لكل ما هو جميل مستحسن بينهم، واعتبارهم مجموعة من الذئاب المجنونة ؟.. هذا ما فهمه (إقبال) عن الحياة والكائنات، فبنى على أساسه فلسفته ، ولقد ارتأى (أبو العلاء) عكس ذلك فيما يبدو ، فكان لفلسفته طريق غير طريق (إقبال) .

ومع هذا فقد كان لأبي العلاء الفضل الأكبر في نقد كثير من الأوضاع الفاسدة ، والكشف عن كثير من طبـــائع النفوس وخباياها ، والغوص وراء مكنون الضمائر وخفاياها ، والضرب في آفاق مليئة بالصور والمتع الذهنية .

ولقـــد ترك تراثاً أدبياً جباراً يعتبر ذخيرة قيّمة في أدبنا العربي خاصة والأدب العـالمي عامة ، ولعل رسالة الغفران التي كتبها حازت من الشهرة والاهتمام والتقدير شيئاً كثيراً ، فضلاً عن أنه كان رائداً من رواد الحرية الكبار في عـــالم الفكر والفلسفة !.

ورغم هـــذا ، فقد كان يائساً من الدنيا ومن فيها لعنادهم وصلفهم.. أما (إقبال) فقد أسهبنا آنفاً في وصف شعره الذي يؤمن بالتحرر ويعيش على الأمل ويجوب في معالم النفس البشرية وطواياها كما كان يفعل أبو العلاء ، ولا ييأس أو يهرب أو ينزوي في محبس من صنعه بل ينقذف في معمعان المعركة النـــاشبة ، معركة الحياة التي يؤمن بأنها قنطرة الى عالم زاهر جميل ، عـــالم الخلود الأبدي .

وكان فيلسوفنا (أبو العـــلاء) شاكاً متردداً ، متمرداً على القضاء والقدر ، ويعتقــد أنه مظلوم مغبون ، طريد الاقدار ، ولطالما تساءل : كيف ألام وأعاقَـب وقد أتوا بي الى الدنيا دون أن أُستشار ، ودرجت فيها رغم أنفي ، وأنا عـاجز الإرادة ، ضعيف القدرة ، يكبلني القضاء المكتوب، وتسيِّرني قوى خفيَّة بعضها كامن في أعماق روحي ومناحي جسدي ، وبعضها الآخر لا أدري له كنهاً ، ولا أعلم له حقيقة ؟.. ثم ماذا كنت قبل أن أولد ؟ ولماذا خلقت ؟ وما مصيري بعد الموت ، أهو نومة أبدية لا صحوة فيها ، أم تراهــا حياة اخرى جميلة خالية من المتاعب والأهوال التي تجرعت كؤوسها في دنياي ؟.. وهل هناك بعث أو نشور ، أم هو الفنــاء الذي لا حياة بعده ؟.. إني حائر .. تعيس .. شقي .. يا إلهي !.. إني ضحية .. ضحية النـــاس والزمان والأقدار !.

وهكذا كان (أبو العلاء) حائراً شاكاً لا يدري له مصيراً ، ومع هذا فقد كانت تطوف به أوقات من الهدوء ، ولحظات من السكينة والتجلي والإيمان ، فيؤوب الى الله يسكب في حضرته دموع التوبة والندم ، ويبتهل إليه في حرارة وشوق وروحانية مشرقة ، لكنه كان يعود مرة أخرى إلى بلبلته وتشككه ، ويصطلي بنار القلق والحيرة من جديد،فيبعث الشكوى والأنين في شعر لافح مر ، ويصب على نفسه ألوان اللوم والتقريع ويعود إلى محبسه الاختياري بجفون مخضلة بالدمع، وقلب مشرب بالأسى

ونفس ملتاعة بالأحزان غاصة بالأوهام والآلام . لهذا كان ممن أحسنوا التعبير عن قلقهم النفسي الموجع ولوعة أفئدتهم المكلومة الطعينة .

وإقبال يؤكد أن وراء حياتنا الفانية عالماً آخر خالداً ، فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعقل أن تكون الحياة عبثاً وسدى،بل انها وسيلة إلى عالم أفضل وقنطرة إلى الآخرة حيث السعادة التي لا تعتريها شقوة والراحة التي لا ينغصها نصب ، والنعيم الذي لا يشوبه ألم ، ولذا فهناك بعث ونشور يوم ينفخ في الصور ، وهناك جنة ونار ، وهناك أيضاً عقاب وثواب وحساب عادل. أما مسألة الجبر والاختيار، والقضاء والقدر فقد أوضحها (إقبال) في شعره، ايضاح الرجل المؤمن ، ذي الضمير المستريح، والقلب المطمئن، والروح الهادئة المستقرة . !

تلك لمحة قصيرة عن (إقبال) و (أبي العلاء المعري) ولا شك أن الالمام بأوجة الاختلاف والاتفاق تفصيلاً تحتاج لفرصة أخرى !.

وكل ما نستطيع أن نقوله في نهاية هذه اللمحة الخاطفة اننا يجب أن ننصف (أبا العلاء) كمفكر حر أنار الطريق أمامرواد العلم والبحث والثقافة ، وننصفه كإنسان تألم لآلام البشر وضحايا الحياة . فبلغ درجة لا يستهان بها في روعة تعبيره ، وننصفه

كأدمي عبقري استطاع أن ينشر ما يعتمل في نفسه من انفعالات كثيرة ، وننصفه كشاعر من كبار شعراء العربية بأسلوبه الجزل القوي وأخيلته السامية وتعليلاته الدقيقة ، وننصفه كناقد بارع لأوضاع المجتمع ونواقصه وعيوبه ، وننصفه كعالم فذ ، وفيلسوف نادر المثال ، وناظم لا يشق له غبار !.

أما (إقبال) فإنصافه شيء من نافلة القول ، فله من كفاحه القوي ، وعقيدته السليمة وبيانه الفياض (وذاته) القوية المؤمنة ما لا يدع مجالا لقول قائل .

القلنــــدري :

في الهند كثير من العجائب ، هناك أقوام يتلذذون بالسير فوق المسامير والأشواك أو النوم فوقهـــا وهم عراة الأجساد ، وفيها أقوام يقضون الأيام العديدة دون أن ينالوا شيئاً من الغذاء ! وفيها من يداعبون الثعابين القاتلة السامة ويراقصونها على أنغام الموسيقى ودقات الطبول ، وهناك من ينفردون بتقديم ألوان مدهشة من السحر وسط الأبخرة المتصاعدة وألحان الناي التي تأخذ بمجامع القلوب ، ثم هناك من كانوا يزهدون في الدنيـــا قاطبة ، فينطلقون وهم مجردون من المال والمتاع بلا هدف ولا غاية امعاناً في إيلام أنفسهم وتنفيساً عن طاقات روحية هائلة مذخورة ، فالهند كما قلنا بلد الروحانيات المتزايدة والتصوف

القديم منذ فجر التاريخ، وبلد المذاهب الكثيرة والنحل المتباينة فأصبحت دياناتها تعد بالمئات ولغاتها كذلك .

وهناك في (الهند) مذهب يسمى مذهب (القلندرية) نسبة إلى مؤسس هـذا المذهب الذي اعتبره صاحبه لوناً من ألوان التصوف ، وكان السالكون لهذه الطريقة جوّابين في الآفاق ، ضاربين في شتى أنحاء الأرض ، ولا يرتبطون بوطن عاشوا تحت سمائه . الارض كلها مسرح ومراح لهم ، ينامون حيث يبغتهم النوم ، يأكلون أينما تيسر لهم الطعـام ، وينطلقون إذا أحسوا برغبة في الانطلاق :

الحب والزهد زادي وكل أرض بلادي [1]
ومن ثراهـا وسادي ولا أدين وربي
لحاضر أو لبـادي

ويمضي الواحـــد منهم هكذا حليق الرأس واللحية تستره الأسمال وينتعل الأوحال . وقـــد كتب عن القلندرية الامام (السهروردي) في كتابه (عوارف المعارف) في الباب التاسع عند ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم فقال :

« ... فمن اولئك قوم يسمون أنفسهم (قلندرية) تارة ،

---

(١) من شعر المؤلف .

و (ملامتية) تارة اخرى ، ولقد ذكرنا حال الملامتي ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالاخلاص والصدق وليس مما يزعم المفتونون بشيء ، فأما القلندرية هي إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم ، حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم ، فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب .. الى أن يقول :

« والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وبما لا يعرف ، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس هاله » .

تلك كلمة قصيرة عن القلندرية من الوجهة التاريخية والفكرية لكن .. كيف نظر (إقبال) إلى (القلندرية) ؟.

ولماذا سمى نفسه في كثير من مقطوعاته (بالقلندري) ؟.

وهل كان (إقبال) يؤمن بهذا المذهب ؟. وإذا كان كذلك

فلماذا لم ينتزع شعر رأسه ويرتد الأسمال وينطلق كالمسافر الضليل لا يعلم له جهة ، ولا يعبأ بأهل ولا وطن .

والحقيقة أن (إقبالاً) كان أكبر من أن يقيد نفسه بمذهب ضيق الحدود ، أو فكرة قصيرة النظر غير واضحة السمات ، فكيف يترك (إقبال) الدنيا وما عليها ، وينفلت منها الى الزهد الكامل أو التحرر الذي لا يحده حد ؟ وكيف يترك حشود الجياع ، وجموع الضائعين المستعبدين في الهند وملايين الجهلاء والمرضى والبلهاء ؟.. ليكن (إقبال) (قلندراً) .. لكن أي (قلندر) يكون ؟.

لا يجد (القلندري) راحة وان ثوى بقبره تحت الثرى

إذن (القلندري) الجديد الذي صوّره (إقبال) وأضفى عليه من جميل الصفات ما جعله جديراً بالحذوة والإقتداء ، مثل هذا (القلندري) هو المثل الأعلى لفلسفة (إقبال) ، هو المؤمن الحق ؛ المؤمن المكافح الخالد ، ذو النفس القوية الخالدة رغم الزمان والمكان والبقاء والفناء ، المؤمن الذي لا يجد راحة في دنياه،ولا يركن إلى الهدوء والسكون فياخراه لأنه حلقة متصلة من الدأب والنضال والسمو والترقي إلى أوج الكمال .

وليس (القلندري) هو ذلك الذي يرتدي الأسمال ، ويحطم التقاليد ويسخر مندنياه ولا يعبأ بدار أو وطن هائماً على وجهه.

ان (القلندري) الجديد انسان ثاقب الفكر ، نابض العزيمة ، لا يستعبده مال، ولا يستذله منصب أو جاه ، ولا يسخره طاغ بوعد أو وعيد .

والقلندري فرد (بذاته) المكتملة ، كل بكفاحه من أجل الحق المجرد ، والأخذ بيد الأحياء الى دنيا أسمى وأروع ، انه يملك الدنيا ويوجهها وجهة الخير لأنه من حديد وعزيمته وصلابته وروحه من حديد ، لا لأنه يملك في يده حديداً فحسب، ولكن لأنه هو نفسه حديد، فلا فائدة في حديد تحمله يد هشة، ويقذفه قلب مفزع وتحركه روح واهنة ، أو تطرقه ذات مبعثرة . قال (موسوليني) (لإقبال) :

« إن من ملك الحديد ، فقد ملك كل شيء » فرد (إقبال) عليه قائلا : « إن من كان هو حديداً فهو كل شيء » .

وبهذا العزم سيطر (القلندري) الجديد الذي بعثه إقبال من مرقده وألبسه هذه الصفات الجديدة .. سيطر على الزمان ، وخاض عبابه الصاخب . واستطاع (بتكبيره) وإيمانه أن يمحق سحر الزمان فلا يستعبده ، ففي قصيدته (همة القلندر) يقول:

يقول للزمان ذلك الفتى ... امض إلى حيث يسير المؤمن
ما لك في معتركي من طاقـة ... حذار من قلندر لا يذعن
اذا طغى اليم فيها أقدمن ... ما حاجتي ملاحه والسفن

ويقول في مكان آخر — وهو يعني نفسه — :

ليس يخفى على القلندر فكر ساور النشء ظاهراً وخفيا
أنا عندي بكل حالك خبر فبهذا الطريق سرت مليا
ليس هم الغواص أصداف بحر يبتغي الغائصون دراً بهيا

فشتان بين (قلندري) و (قلندري) .

فان أولهما قد اتسم قلبه بالطيبة ، ونذر نفسه لله ، فجرى وهام على وجه بلا هدف محدود ولا خطة مرسومة ، ولم يلتفت للناس ، والثاني باع نفسه لله خالصة ، فاتخذ السبيل الحق ، وهتف بالناس أن سيروا ورائي الى الله ، وأوضح وأبان ، وتركز ودقق ، ولم يدع جهده مشتتاً موزعاً هباءً منثوراً .

فكان هذا (القلندري) الجديد هو قائد البعث ، وشعار الذات الكاملة ، وهو الذي أذاع سر الوثبة المباركة ، وحركة الزحف والتحرر .

قال للرومي في الخلد سنائي لا يزال الشرق بالتقليد يؤسر[1]
قال منصور: ولكن قد سمعنا أن سر الذات أفشاه قلندر

ومن ألصق الصفات (بالقلندري) صفة هامة هي :

---

(١) الرومي وسنائي ومنصور : من كبار الصوفية .

الفقر :

ولقد أكثر (إقبال) من ذكر كلمة الفقر ، وعدّها صفة من أعظم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الانسان المؤمن الفاضل ، ولم يقصد (إقبال) بالفقر ذلك المعنى الدارج المعروف وهو عدم المال أو قلته . ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام : « .. والذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقـــدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان، وربما يملك الفقير قناطير من الذهب، وربمـا يكون ملكاً مسلطاً لا يعجز سلطانه مال أو متاع » . وليس هـــذا المعنى بعيداً عما فسر به بعض الصوفية الفقر ، ففي رسالة القشيري : « سئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال : حقيقته ألا يستغنى إلا بالله » . وقـــال (الثعلبي) : « أوفى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يومه ما صدق في فقره » ... فترى أن الفقر في هـــذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ، ولكن ألا يرتبط الانسان بمـا أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده » اه .

وفي قصيدة فقر الصالحين يقول (إقبال) ما معناه :

« يا عبيد المال وعشاق الطين والمتاع ، ألا أخبركم عن الفقر الرفيـع العظيم ؟.. هو أن تستبين طريق العـــارفين ، وتروي

فؤادك الظامىء من ينبوع الإيمان واليقين.. مثل هذا الفقر عزيز النزعة ، رفيع الجناب ، غني عن الدنيا ومـا فيها ، أو قل هي طوع يمينه ، حتى لكأن الجوزاء بسموها ورحابتها لا تحتاج منه إلا الى خطوة يسيرة كي يطأها .. وإذا انطلقت أصداء صوته في العالمين ، أرعشت الكائنات وهزّت البقاع ، وما هـذه العزمة الفتية ، والقوة الجبارة ، إلا لأنه يؤمن بأن هذا الكون ليس له إله إلا الله !.

إن الشوق يملأ كل ذرة في كيانه، والرضى يسري بين حناياه، وتذوق الخير والحب والجمال يغمر روحه ، وهو دائماً يسلم أمره لله، ويرضى بما قسم له قناعة وزهداً لا عن عجز وضعف وكسل! فيا له من فقر رائع حقاً، ملأ الارض صفاء وسناء وأشاع فيها بهجة وسعادة، ولا عجب في ذلك، لأن هذا الفقر ميراث النبي الأعظم محمـد ﷺ .. ان له في الظلمات الحالكة نوراً مسرجاً إلى المجد فإذا غلبت الدجنات على البسيطة انجابت عن عينيه الغشاوات ، وبدا الظلام ضياء غامراً !.

وللفقير عزيمة تصنع المستحيل، وتركب الصعب ، وتخلق من اليأس أملاً ، ومن الفشل نجاحاً ومن (الزجاج جواهر ثمينة) ، وربما استطاع بإيمانه أن يغير ناموس الفلك ، وأن يكون سناء الملائكة والتماعهم مستمداً منه !. يا له في مظهره من مسكين مرقع الثياب ، قانع بالقليل ومع ذلك فقلبه كبير يسع الدنيا بأسرها، إن فقرنا من نوع عجيب ، فهو صامت أو نادر الكلام ، خال من

البهرج والدعاية والمظاهر ، لكنه بهـــذا الصمت الحكيم يربي الأجيال، ويشيد الأمم، ويدفع بموكب الحياة قدماً إلى الأمام».
ويستطرد (إقبال) قائلاً : إن صفة الفقر هي صفة المسلم الحق المتواضع ، ورغم أنه ساس دولته من فوق حصير ، فقد خشيه أولو التيجان والصولجانات :

فقرنا ليس برقص أو غناء ليس سكر النفس في موت الرجاء
فقرنا معنـــاه تيسير الجهود فقرنا معناه تسخير الوجود
فقرنا العـــادي سراج لو ظهر يخجل الشمس ويزري بالقمر
إنـــه إيمانـــ بدر وحنين إنـــه زلزال تكبير الحسين

●

صاح دعني أكتم الهم الدفين إن كأسي ليس يروي العابثين
فكنوز الدين قد طارت شعاعاً وتراث المال قد أمسى ضياعا

●

أيهـــا الشادي بقرآن كريم وهو في ركن من البيت مقيم
قم وابلغ نوره للعـــالمين قم وأسمعـــه البرايا أجمعين
إن تكن في مثل نيران الخليل أسمع النمرود توحيد الخليل،

فالفقر ليس رضا بالدون وهو خنوع للمذلة ، ودردشة بلهاء، وترك الحبل على الغارب للحاكمين المستبدين ، واحتجاج بالقضاء

والقدر على ما أصاب أممنا من ضعة وهوان، وصبر على الغاصبين، وإنما هو عزيمة وإيمان وكفاح واصلاح ، هو الغنى بعينه إن لم يكن أسمى وأعز !.. « أيها المؤمن فلتتقدم !. ليس هذا منتهى السفر » .

وفي ابريل عام ١٩١٨ م فاضت روح (إقبال) إلى بارئها وهو أشد ما يكون فرحاً وطرباً للموت .

بعض المراجع التي رجعنا إليها في هذا البحث

١ ـ ديوان « ضرب الكليم » ... ترجمة « الدكتور عبد الوهاب عزام » .

٢ ـ مقالات الأستاذ « أبو النصر الهندي » في مجلة الرسالة عن « اقبال » عام ١٩٣٥ م .

٣ ـ ديوان« رسالة الشرق » ترجمة الدكتور« عبدالوهاب عزام » .

٤ ـ فلسفة « اقبال » والثقافة الاسلامية في « الباكستان » تأليف الأستاذ « الصاوي شعلان » والأستاذ « الأعظمي » .

٥ ـ مع « أبي العلاء » في سجنه ـ لـ « طه حسين » .

٦ ـ محمد « اقبال » « سيرته وفلسفته وشعره » الدكتور عبد الوهاب عزام .

٧ ـ ديوان الأسرار والرموز !.

٨ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لـ « أبو الحسن الندوي » .

٩ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند ـ لـ «مسعودالندوي»

كتب للمؤلف

روايات

١ ــ الطريق الطويل
٢ ــ في الظلام
٣ ــ عذراء القرية
٤ ــ اليوم الموعود
٥ ــ رأس الشيطان
٦ ــ الربيع العاصف
٧ ــ النداء الخالد
٨ ــ الذين يحترقون
٩ ــ أرض الأنبياء
١٠ ــ طلائع الفجر
١١ ــ ليل الخطايا
١٢ ــ ليل العبيد
١٣ ــ ابتسامة في قلب شيطان
١٤ ــ الكأس الفارغة

١٥ ــ نور الله (جزءان)
١٦ ــ قاتل حمزة
١٧ ــ مواكب الأحرار
١٨ ــ الظل الأسود
١٩ ــ الرايات السوداء

مجموعات قصص قصيرة

٢٠ ــ موعدنا غداً
٢١ ــ دموع الأمير (رجال الله)
٢٢ ــ العالم الضيق
٢٣ ــ عند الرحيل

دراسات

٢٤ ــ اقبال الشاعر الثائر
٢٥ ــ شوقي في ركب الخالدين
٢٦ ــ الاسلامية والمذاهب الأدبية
٢٧ ــ الطريق الى اتحاد إسلامي
٢٨ ــ المجتمع المريض
٢٩ ــ أعداء الاسلامية

شعر

٣٠ ـ أغاني الغرباء

٣١ ـ عصر الشهداء

٣٢ ـ كيف ألقاك

مسرحيات

٣٣ ـ على أسوار دمشق